رواية أبواب

خلقني الله مدخلًا واحدًا، لأبوابَ متفرقة!

أمجد النجار

إهداء

١

باب الصمت

صوتٌ.. خارج النص!

على أنغام صوت الغد..
وقبل الوصول إلى المحطة النهائية، كان البولمان، يتمايل بهدوء وسكينة، أغلب المسافرين على وشك الاستيقاظ، مع بعض الوشوشات الهامسة التي تُسمع هنا وهناك:

- شو، وصَّلنا؟!

ليجيبهم صوتٌ من المكبِّر:

"الشركة.... ترحب بمسافريها الكرام، وتتمنى لهم وصولاً بالسلامة.
سنتوقف في كراج مدينة حماة لمدة ربع ساعة، ثم نتابع رحلتنا إلى مدينة حلب، في تمام الساعة الثامنة والنصف. نرجو منكم المحافظة على نظافة البولمان، وعدم نسيان أمتعتكم داخله..وشكرًا."

انفجر صمت البولمان بانبعاث للحياة على شكل: خشخشات أكياس، أجساد تتمطّى، تثاؤبات استيقاظ، وأصوات مبحوحة:

- يلا قوم، وصلنا!!

وحده، الرجل الجالس على عرش المقود، كان في عوالم أخرى، يده تمس المذياع، كما يلامس الراهب كتابه المقدّس، يرفع الصوت ثم يخفضه...

وأخيرًا... ثبت الصوت!

بهدوء طقوسي، فتح نافذته، امتدت يده، وسيجارة اشتعلت بين أصابعه كجذوة من نار مقدسة.

يتردد قليلاً قبل أن يسحب نفسًا عميقًا، ضحكته تنمو من أعماق أعماقه، كزهرة جنونية، يهمس:

- هي هية، علِّي الصوت!

يجيبه مرافقه:

- من!؟

فيرد السائق، بحماسةٍ لم يخفِها:

- اسمع... اسمع!

يحاول أن يرفع الصوت أكثر، بينما كانت مقدمة البرنامج تبث حيويتها المعتادة، تُحيّي المستمعين بأجمل العبارات، يتخلّل حديثها مزيجٌ من الأغاني التي تنخفض وتعلو كلما صمتت قليلًا، ثم تعود، لتُطلع المستمعين، على أبرز الأخبار الثقافية، وحالات الطقس، وغيرها من المستجدات اليومية، تُستأنف الأغاني، وتعود المقدّمة مرة أخرى لتحذّر السائقين من القيادة بسرعة، لا سيّما على طرقات

السفر السريعة والممرّات الداخلية، يصرخ السائق:

- سمعت؟ سمعت؟

عم تحكي معي!

ردّ مرافقه، بدهشة ممزوجة بالسخرية:

- كيف عم تحكي معك؟

ومين هي؟

سيجارة بعد أخرى... يغرق في صمتٍ طويل، ثم، بنبرةٍ حادة وكأنه يتحدث إلى نفسه بصوت مرتفع:

- سندخل إلى محطة البنزين.

يلا، قوم جهّز الركاب، واعمل تنضيفة للبولمان!

يردّ مرافقه باستسلام:

- طيب... يلا!

بلطفٍ، ينعطف يمينًا، ثم يسارًا، ليقف أمام الخزان. ينزل، وعلى وجهه علامات سعادة، ووجوم، وقلق، في ذات اللحظة، يتحدث مع مسؤول المحطة قليلاً، ثم يتوجه خلف البولمان ليفحص العجلات، ويعود إلى الأمام بهمهمته التي لا تتوقف:

- كلو تمام..كلو تمام!

يتجه إلى تلك الأشجار المحيطة بالمحطة، يمدّ يده داخل جيب سترته القطنية، يُخرج هاتفه المحمول، يضغط على الأزرار التي يحفظها عن ظهر قلب...

ينتظر قليلاً، فيجيب الصوت المقابل:

- ألو... صباح الخير،

تفضل. مين معي؟

يردّ بخفوت مليء باللهفة:

- ألو... أنا... صباح الخير!

-يسعد صباحك وكل أوقاتك!

تفضل، شو بتحب تسمع اليوم؟

يتابع، وكأنّه في حلم:

- ماعرفتيني؟ أنا...

- أكيد عرفتك..أهلًا وسهلًا بمستمعنا الدائم،

كيف كانت رحلتك لهذا اليوم؟

يجيبها، بنبرة راضية:

- تمام، من صوتي عرفتيني!

- ولو!

مستمعنا المخلص، ومحبوب البرنامج!

تلك العبارة، وكأنها قنبلة من السعادة، ألقتها على مسامعه، وعلى مسامع الركّاب الذين كانوا يستمعون بدهشة، إلى تلك المحادثة العجيبة!

قطعاً، من تلك المسافة البعيدة، كان التنصت على الهاتف مستحيلاً، إلا أن القدر، أو ربما نسيان السائق المتعمد، لمذياع البولمان مفتوحًا..!
وهكذا، لم يكن الركاب يستمعون إلى مكالمة عادية، بل إلى بثٍّ إذاعيٍ خاص، مباشر، لا يُذاع إلا لأولئك المحظوظين، الذين يجلسون بين المقاعد، حيث الكلمات تخرج من المذياع، لتغسلهم بدفقٍ من الدهشة والفضول والضحك الممزوج بحسرة صغيرة على قصص لم تُروَ بعد!
صاح مرافقه:
- يا الله هاد سائق البولمان تبعنا..
والله هاد هو.. عرفتو من صوتو !!
تعالت الأصوات في أرجاء البولمان، حتى كادت المقاعد تهتزّ تحت ضجيج الركاب الذين لم يصدقوا ما يسمعون!
التفتت امرأة مسنّة، وعينها تشع بدهشة، صوب النافذة، وهي تصرخ:
- إييه!
شو هادا؟!
من وين جاب رقمها؟
فهمس رجل يجلس خلفها، بهدوء:
- خالتي، هاد البرنامج من الراديو...
أي حد بيقدر يتصل!

ضحك راكب من الجانب الآخر، وهمس لرفيقه:
- يا ريتني أنا كمان يطلع لي حدا يقول لي "محبوب البرنامج"
ضحك الاثنان، بينما ذلك الشاب النائم في الركن الأخير، لم يحرك حتى رأسه، ظلال التعب تكسو وجهه، نزل مسرعًا، متجنّبًا الحديث، كل همه أن ينفث سيجارته المعلّقة على طرف أذنه، بانتظار أن تنتهي تلك المحادثة الأسطورية!
في المقعد المجاور، قالت مرأة جريئة بنبرة تحمل سنوات من الانتظار:
- طول عمري بسمع صوت الغد، ولا مرة حدا سألني شو بحب أسمع!
ردّ رجل كهل، بنبرة فيها استهزاء:
- شايفين؟
حتى برامج الصبح صار فيها غزل...
ونحنا لسا ما صحينا من كوابيس الفواتير!
تابعته المرأة بجانبه، ربما زوجته، بلهجة تعكس الماضي والحاضر:
- بزمانّا كنا نسمع عبد الحليم، ونخجل من حالنا! هلئ، الشوفير بيحكي مع المذيعة، والناس عم تصفّق!
هتف الزوج بعنفوان:
- قال "محبوب البرنامج" قال...
إي نحن ما كنا منعرف حتى مين بيقدّم البرنامج!

في مقدمة الباص، وقف طفل صغير، بريء لا يفهم سوى ضحكات الكبار، نظر لأمه وسأل بفضول:

- ماما، ليش كل الناس عم تضحك؟

صار السواق مشهور، وربح الجائزة؟

بينما كان السائق، يتابع حديثه بجدّية هادئة:

- أنا الآن على أبواب مدينة حماة!

ردّت بصوت مشرق:

- أووه، أتمنى لكم وصولا سالماً، ما أجمل حماة ونهرها ونواعيرها!

ولم تقل **"أهلها"** ثم أضافت بابتسامة صوتية واضحة:

- وعبر إذاعة صوت الغد، نرسل أجمل تحيّة صباحية لجميع المسافرين معك!

كان جميع الركاب مذهولين.

لم يتجرأ أحدهم على الحركة. ارتسمت على وجوههم نصف صدمة ونصف ابتسامة، كما لو أن أحدًا ما خاطبهم، بل كأنهم سمعوا من يُنادِيهم بأسمائهم. بعضهم تمتم دون وعي:

- صباح الخير...!

تتابع هي، بنغمة إذاعية دافئة:

- ماذا تحب أن تسمع اليوم؟

فيرد بعفوية مبهوراً:

- أي شي... أي شي، إنتي ذوقك حلو، متلك!

تجيبه بلطف:

- تسلم يا أستاذ... خلي نشوف الكونترول شو محضّرلنا أغنية، ورح أهدّيها إهداء خاص لجميع المسافرين، وخاصة للمسافرين الأعزاء الواصلين معك إلى محافظة حماة.
رد عليها بكثير من الامتنان:
- شكرًا، شكرًا... كلك ذوق.

-أهلًا وسهلًا، يسعد صباحك..

تووووت...
ما بين انقطاع الخط، والأغنية التي كانت تصدح في البولمان، كان السائق منتصبًا أمام المقود، مشعلًا سيجارته، ليسمتع مع جمهوره المنبهر:

"يا رايحين لحلب، حبي معاكم راح
يا محمّلين العنب، تحت العنب تفّاح"
من خلال المرآة، تراقب عيناه الركاب، الذين يرمقونه بنظرات الفخر، وكأنّه **بطل قومي!**
فيشرع ابتسامته، **بتتمدد وتتقلص مع تقلّبات ذاكرته** لتلك المحادثة الشيّقة.. لا أحد يعلم ما الذي كان يفكر تماماً، ولا حتى مرافقه الذي أيقظه من نشوته مذهولاً:
-معقول!

هاد أنت اللي كنت عم تحكي؟

يردّ، شبه ضاحك:

- لك إيي، يا زلمة... ما عرفتني؟!

يجيبه بدهشة:

-عرفتك...

بس شلون؟ وكيف؟ من وين بتعرفها؟!

وشو عرفا فيك؟

فيرد، بكل ما يملك من عنفوان:

- بعرفا... بعرفا !

لكنّ ذلك لم يروِ ظمأ مرافقه، ألحَّ عليه بابتسامة خبيثة:

- من وين بتعرفا يا ملعون!؟

لم يفلح بمحاولاته، إذ أجابه السائق، بعد صمت وفي عينيه غموضٌ مشاكس:

- ما فيي قول !

كان يسأله، ونظراته تتنقل بين عيني السائق ووجوه الركاب، الذين كانوا يسترقون السمع إلى هذه المحادثة المشوّقة!

فيجيبه السائق، بعد أن رمى سيجارته وأغلق النافذة بهدوء حاسم:

- بعدين، بعدين.. ثم أضاف:

- يلا، قوم، جهّز حالك... وصلنا !
كانت تلك آخر أجاباته المحكمة، التي أغلق بها على سعادته، ساحبًا الستارة الأمامية قليلًا، **لينسكب ضوء حماة على وجهه المبتسم!**
أثناء نزول الركاب، نزل ذلك الشاب مسرعاً، وتمتم أمام السائق دون أن ينظر إليه:
- شو... صاير مشهور يا..... !!
أجابه السائق بلا مبالاة:
- أهلين، أهلين .....!

منَ الداخل..

على ذلك السطح المحاط بالأبنية القديمة، كانت هناك يدان تنفضان الماء من طشت الغسيل، لتُخرج آخر قطعة وتُعلّقها على الحبل، تنفضها مرارًا، لتبقى محافظة على طيّتها قدر المستطاع.
تمدّها على الحبل، بعد أن تمسحه بقطعة مبلولة، لتتأكّد من خلوّه من آثار الغبار أو أوساخ الطيور اليابسة، أخيرًا، تضع الملاقط الخشبية بخفّة، ثم تنحني لتسكب ما تبقّى من ماء الغسيل على الزرع المرصوف على حوافّ السطح المتهالك!

- أبو الليل! أبو الليل!
(تنادي زوجها الذي لمحته وهو يخرج من البيت)
- جيب لي معك دوا غسيل، وجيب معطّر للغسيل غير اللي جبتو المرة الماضية. في دوا اسمو... هاد معطّر ومطري بنفس الوقت، وجيب مرتديلا وبيض، ولا تنسى تجبلي معاك... (تشير له بيدها بشكل مستطيل وتقول:)
-طويلة!

(يُشير لها بإشارة واحدة، أنه قد فهم)
- إي ولا تطوّل، خالد راجع من الشام بيكون جوعان!

- ماشي، ماشي. يهز برأسه ثم يكمل طريقه إلى السوق.
وكأن القيامة ستقوم بعد قليل، تنزل مسرعة لتلملم ما تبقى من آثار أولادها المترامية هنا وهناك، تتمتم:
- يالله، هالأولاد إمتى بدهم يكبروا!
تتحول تلك التمتمات إلى صياح:
- يا خلود!
ليش تيابك بالأرض؟ تعي ضبّيهم بسرعة!

تجيبها ببرود:
- يلا جاية، جاية!

- بسرعة..!

- يلا، طوّلي بالك... عم نشف شعري!

- شو حابّين تفطروا؟
أنا وصّيت أبوكي على بيض ومرتديلا، وفي عنا لبن ولبنة وجبنة وزيت وزعتر، يلا خلصي بسرعة حتى تحطّي الشاي عالنار!

- طيب يا أمي... ما في نعيمًا؟!
تقبل يدها وخديها، فتقول لها أمها:
- نعيما حبيبتي، إن شاء الله ع قبال حمّام العرس!

-أنا بدي عريس يكون ضابط... ويلبس عسكري، و...
قبل أن تكمل كلامها، تقاطعها:
- كلشي الله ببيعتو خير.
المهم يكون ابن حلال، ويصونك ويصون أولادك... الكتاكيت حبايب ستّهم!

- وجدّهم!

-أكيد... أبوكِ أكتر واحد رح يفرح بأحفاده!

- إن شاء الله، يا أمي!

- يلا، روحي لقّمي الشاي..

- طيب... ليش ما إجى خالد لهلّق؟!
أجابت أم خالد وهي ترفع نظرها إلى الساعة:
-لازم يوصل بعد شوي، حسب ما قال، رحلتو بتوصل عالساعة تمانة وربع، وبدو شي ربع ساعة ليكون هون.
ردّت بنبرة فيها نفاد صبر:
- صارت تسعة ولسّا ما بيّن!

- بيكون بالحارة، عم يسلّم عالجيران متل العادة!
بعد عشرين دقيقة...كانت أصوات التشحيط تعلو شيئًا فشيئًا، بـ**"كسريَّته"** المُلمّعة، وعرجته الواضحة، وصوت سعاله، المحمّل بالكثير من البلغم، والذي كان سببه -إلى جانب التدخين- ذلك الطريق الصاعد، الذي يوصل إلى بيته المؤلف من

طابقين متصلين، يعيش فيه مع ما تبقى من أهله:
في الطابق الأول أمّه وأخته المطلّقة،
وفي الطابق الثاني يقيم مع عائلته المكونة من زوجته وابنه وابنته، يدخل باب البيت، حيث تمتد فسحة سمائية صغيرة، يسلّم بهدوء.

-السلام عليكم، يسعد صباحك أمي!

ترد عليه:

- وعليكم السلام، يسعد صباحك ابني!

كان الكيس الذي معه، مكتظًا بوصايا زوجته، ولم يكن لينسَ نصيب أمّه، فأحضر لها بعض الفواكه من دكانه المتواضعة المفتوحة على الطريق الرئيسي:

- جبتلك شوية موز وتفاح حتى تعمليهم كوكتيل.

- يسلم دياتك يا أمي.

يقبّل رأسها ويدها، ويتّجه صوب الدرج الذي يوصله إلى الطابق الثاني، قبل أن يصعد، يزيح نبريج الماء برجله، الذي بقي ممدودًا، بعد حملة التنظيف التي قامت بها أخته!

أما زوجته، التي كانت تنظر إليه من أعلى الدرج، متعجلة!

ولا تريد أن تناديه **-قصرًا للشر-** كانت أخته تنظر إلى **كنَّتها** بالكثير من التنقيص، والاهانة، وتلك قصة طويلة، سببها، تلك الشائعات التي تناقلها الناس، والتي خلَّفت في قلب العائلة، جراحًا لاتندمل بسهولة**!**

أما بقاء أبو خالد معها؛ فسببه طيبة قلبه الكبير، وحبه لها، كما أنه في قرارة نفسه، **يعلم أنها بريئة،** ولكن ليس لديه أي دليل يفيد براءتها**!**

وهي المرأة الوحيدة، التي ستتقبله على ما فيه: من عللٍ، ومشاكل صحية، وجسدية، ونفسية، يواسي نفسه:

"...ما في مرأة بالعالم، تطبخ وتدبّر بيت مثلها امرأة رائعة... وزوجة صالحة!"

هذه قناعته التي لم تتغيّر، رغم كل ما حصل**!**

على طاولة المطبخ، يفرد الكيس، ومن جيبه يُخرج باكيت **"الحمرا الطويلة"**، ويدسّه في يدها سرًّا، فتقول له بصوت شبه مسموع:

-لا تقلق... الجميع يعلم!

يردّ بتنهيدة:

-لا يهم، لا أريدهم أن يعلموا بأني أعلم.. بل وأني

أحضره لكِ!

غير مبالية، تفتح العلبة الورقية وتسحب أول سيجارة منه:

- وشو الفرق؟

- إنها هيبة الأب... لا أريدها أن تنكسر في قلوبهم!

- أووووه... صحيح!

رغم انتباهه إلى نبرتها الساخرة، تجاهلها تمامًا:

- الفطور جاهز؟

- تقريباً، عم نستنى خالد، شوي وبيوصل.

-هالولد مصيبة!
لشوف امتى بدو يخلص هالجامعة، بركي بلاقيلو شي وظيفة، ونزوجه، ونرتاح من همه!

- إن شاء الله يا رب، مبارح شفت منام ما حلو... يا رب يكون خير!

يجيب بنبرة غاضبة:

- كل أهل الحارة عم يحكوا بالموضوع، طالما ماشي مع هالشلة الوخم، رح يبهدلنا بآخر هالعمر!

لازم لاقي حلّ لهالقصة!

يسكت قليلاً، ثم يضيف بنبرة ساخطة:

- بعتناه على الشام وماخلصنا!

بمجرد أن أتم جملته، كانت أصوات خطواته على الدرج، تدب دبيباً، مع أصوات أنفاسه ثقيلة، لاهثاً يلقي حقيبته على الأرض :

- السلام عليكم...

ترد من المطبخ:

- وعليكم السلام، الحمد لله على السلامة.

- الله يسلمك أمي، كيفك بابا ؟

كان أبوه يتفحصه من الأعلى إلى الأسفل، وكأنه يبحث عن دليل إدانة:

-أهلين، يلا فوت غسِّل، وتعال افطر معنا، الفطور جاهز!

تضيف الأم :

- وصَيِّح لأختك بطريقك!

الانطباع الأول!

كنتُ قد تجاوزت القناطر الحجرية، أواصل سيري قبيل ساعة من مغيب الشمس، الأصوات البعيدة تتجه إلى سمعي، تعلو شيئًا فشيئًا، مع اقترابي من مكان التجمّع الكبير!

عند تلك القناطر الحجرية المتصلة ببعضها، والتي تقطع عرض الشارع، قبل أن ينتهي انحداره، فيتصل بإطلالة مدهشة على كورنيش النهر، حيث يرتصف على يمين النازل من ذلك الطريق، شارعان مخصصان للسيارات، بين ذهابٍ وإياب! جميع أنواع الآليات، كانت تتسابق في تلك اللحظة، لحجز مكانٍ خالٍ، على عجل، يرمي فيه سيارته أو دراجته النارية، وينزل مسرعًا، تسبقه صرخاته المتضاحكة على من يركب معه:

- بسرعة.. بسرعة!

قبل أن يأتي أحد الجيران، ويمنعنا من صفّ السيارة بهذه الطريقة المخالفة!

تلك الضحكات المكتومة، تتسابق بالنزول، حثيثة الخطى، مستعدة لإكمال الطريق سيرًا على الأقدام..

ولم يكن ذلك الحماس على شيءٍ، كل ما في الأمر، حصولهم على مكان قريب من ذلك الاحتفال!
وأجمل ما في الأمر، أنهم لن يضطروا لحمل حوائج النزهات المعتادة: من حصير، وكراسي، وطاولات صغيرة، وأخرى كبيرة بلاستيكية أو حتى خشبية، كما جرت العادة فيما يُطلق عليه الناس هنا **"السيران"** إنه أشبه ما يكون بالعيد السنوي!

سوقٌ دائري!

عندما ينتهي الشتاء القارص في هذه المدينة، التي يسكنها النهر منذ القِدَم، ويُضفي على بداية شتائها نسيمًا لطيفًا، ما يلبث أن يتحول إلى ضبابٍ كثيف بعد أن يبرد ماؤه، فتُصبح وبالأخص -تلك المناطق القريبة منه- كأنها ثلاجات لحفظ اللحوم البشرية!
بانقضاء الأربعينية الأولى، ومع بداية شهر **شباط** بالتحديد، يبدأ الطقس بالانكسار قليلاً.. وبحلول شهر **نيسان**، تخلع الأشجار بياضها أو انجمادها، لتعود الحياة، إلى الحياة من جديد!
في هذا الوقت بالتحديد، يستعد الناس للتحضير للعيد السنوي، الممتد من اليوم **العشرين من شهر نيسان**، وينتهي مع **بداية شهر أيّار!**

خمسة عشر يومًا، كفيلة بإنزال شتى أنواع البهجة والسرور على سكان هذه المدينة بشكل عام!
وأقول: **"بشكل عام"**؛ لأن أصحاب **"البهجة الخاصة"** هم التجّار بلا شك!
نعم، التجّار... إنهم **صنّاع الحدث!**
فبعد طرح البراكيات، برسم الإيجار من قبل المجلس البلدي، يبتدء التسابق لاحتضان الأماكن المناسبة. و**البرَّاكية**: أعمدة حديدية، متصلٌ بعضها ببعض، بما يُشبه الغرف الصغيرة، مغطاة بألواح الألمنيوم، لتُشكّل سقفًا مصطنعًا، فتصبح جاهزة من الداخل، لإضافة مختلف الديكورات.
ولا أقول أن البضاعة هي التي تصنع الحدث، **المشتري** هو الصانع الأكبر لكل حدث: سواء كان الحدث تاريخيًا، أو صناعيًا، أو تجاريًا، أو حتى سياسيًا!
التاجر الذكي، من يختار الموقع الأفضل ليكون ظاهرًا لمرأى الناس وسمعهم، فتكون له الأسبقية في التحكّم بعقل المشتري أولًا، وكما يقول علماء النفس:
"الأثر الأكبر غالبًا ما يكون للانطباع الأول... وما تبقّى، إنما هو تكرارٌ لذلك الأثر!"

وعلى كلٍّ، الموقع الممتاز لا يجدي نفعاً عندما يكون السوق دائرياً !
كما هو الحال في العيد السنوي **مهرجان ربيع مدينة حماة!**

مسكة.. في منتصف الليل!

في تمام الساعة الرابعة واثنتين وأربعين دقيقة، تعالا صراخٌ هامسًا في أذن المكان، أعاد الصدى ترديده، ليصل إلى آذان المارّة، العائدين من صلاة الفجر، يقفون تحت البرندة، يحوقلون، ويتهامسون:
- ليش ما عم ياخدوه على الشيخ....، والله هالشيخ سمعته متل المسك، وايده فيها بركة!
ليرد الآخر:
- المشكلة إذا طوّل السحر، بيعمل صرع! خلّي شي حدا يحكي مع أهله، بركي بيستعجلوا، والله انصرعنا كل يوم على هالحالة!
أما جيران ذلك المنزل، الذين اعتادوا سماع ذلك الصراخ الليلي، والذي عادة ما يكون من طرف واحد، هذه المرة، كان هناك صوت آخر، كان صوتاً نسائياً حزيناً، يحاول جاهداً، أن يبرّد حدّة الصراع الحاصل:

- أية مسكة، يا زياد؟

- إي إنتي، إنتي عم تلعبي بالمسكة، مليون مرة قلتلك ما تلعبي فيها!

- أنا؟

- إي، إنتي، لا تعملي حالك بريئة!

- والله ما بعرف عن شو عم تحكي يا زياد !

- ما تعملي حالك ما بتعرفي، جسمي كلو بيصير مشدود، وما بيعود بيقدر ينام!

يتبع ذلك التهجم، صراخ غير المفهوم، مصحوبًا بأنواع من الكلمات البذيئة، والكفر أحيانًا!

تحاول الأم المسكينة تهدئته دون جدوى:

- يا زياد، دلّني وين هي المسكة، حتى ديرها وين ما بدك!

يزداد صراخه:

- هيك بدك يا الله!

انتي وحدة مجنونة!

أنا ما فيني شي!
انتو اللي بدكم هيك!
عم تخربوا حياتي
اطلعوا من راسي!
اطلعوا من حياتي!

يخبط برجله الأرض، يدوس كل ما تحته، يرمي كل ما يراه بأقوى ما يستطيع، يضع سبابته من عظمة وسطها، يعضُّها بكل ما يستطيع من قوة، مصحوبًا بأنين وسب وشتم متواصل، مرة، اثنتان، عشر مرات، حتى ينتفخ، فتهدأ ثورته شيئاً قليلاً!

فيبدأ طقسه التالي، جيئة وذهاباً داخل غرفته، والمطبخ المقابل لغرفته، إلى الصالة التي على شمال المطبخ، ثم إلى اليمين، إلى الشباك المطل على الشارع في نهاية المطبخ، قبل أن يعود إلى غرفته، في محاولة أخيرة للنوم!

يصرخ من داخل غرفته:

- وين القداحة؟

تجيبه من الصالون:

- في المطبخ يا زياد!

يخرج من باب غرفته، المغطى بستار قماشي ثخين، متّسخ مثل شودار البراكيات، ليجد أمه تهمُّ بإعطاءه

القداحة:

- هي القداحة يا زياد!

دون أن ينظر إليها:

- ما دخلك!

حطيها على الطاولة ولا تلمسيني أبداً!

دون أي كلمة أخرى، يعود إلى فراشه، الذي لا يسمح لأحد بتنظيفه، والمتوسّط غرفة فيها بعض الأثاث: خزانة خشبية، ومرآة خشبية بها الكثير من الحروق، والتي سببها بكل بساطة: **استعمالها كمنفضدة للسجائر!**

يتربع بهدوء وسط سريره، نظرة شاردة، سيجارة جاهزة للاشتعال، يردد بعض الهمهمات، يتوقف قليلاً ليراقب الهدوء، يضعها في فمه، ينتظر قليلاً، يتمتم آخر ما تبقى في جعبته من شتائم!

يشعلها أخيرًا، يأخذ نفساً عميقاً، عدة سحبات متتالية، فتنتهي تماماً، يرميها على الأرض غير مبالٍ بمكان وقوعها، ليشغل الأخرى، لكن هذه المرة بطقوس مختلفة:

" أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"

يكررها، إلى أن يشعر بالطمأنينة والسكون، وفي كل مرة يمطّ حرف الياء في كلمة "الرجيم" أكثر!

فإذا استقر حاله، وصفا جوّه، أشعلها، وهكذا مع الثالثة، إلى أن يهدأ تماماً، فيذهب إلى المطبخ، ثم إلى الصالون، يتأكد أن أمه دخلت غرفتها، ونامت، فيعود إلى غرفته بهدوء تام، يخلع ما تبقى من ملابسه، ويغطّ في نوم عميق إلى آخر رمقٍ من النهار!

أمه المسكينة، لم تكن تستطيع النوم، أمنيتها الوحيدة في تلك اللحظة أن يعود طفلاً صغيرًا ، تهدهده على كتفها كي ينام، لأكثر من سنة، تحاول أن تعرف ما هي تلك المسكة الملعونة، دون أي جدوى، تحديداً، منذ خطوبته الأولى مع تلك الفتاة، التي ثارت الشكوك حولها، بأنها قد عملت له عملاً شيطانياً!

٢

باب النـهر

دورةٌ كاملة!

بعد قرار البلدية بإقامة البراكيات حول قلعة حماة، وهي ليست بالمعنى الذي يتبادر إلى ذهنك!
ربما كانت كذلك يومًا ما، كما وصفها المؤرخون بأنها من أقدم القلاع في العالم!
تلك التلة المستديرة، جعلت من صراع المكان شيئًا لا أهمية له، حيث اعتاد التجار على التوزع حولها، مختارين الطريقة المعتادة في توزع الأسواق، فمحلات الملابس والأقمشة مصفوفة قرب بعضها، والمأكولات في قسم خاص، وكذلك الأثاثات المنزلية، سأذكر لك توزُّعهم **حول القلعة** ليتسنى لك تصور ما أقصده بالضبط:
ابتداءًا من بوابة شارع أبي الفداء، التي تدخل منها إلى ساحة القلعة من جهتها الجنوبية، تتوزع البراكيات المختصة بالأدوات المنزلية: من برادات وغسالات وغيرها.
وإذا أكملت طريقك يسارًا بضعة أمتار، عند التقاء شارع ابن رشد مع واجهة القلعة الأخرى، **يبدأ الربع الثاني من القلعة**، وهو الربع المخصص للملابس بكافة أنواعها ومقاساتها، وكذلك الأقمشة

بكل ألوانها!
مُسايرًا طريقك الذي ينعطف قليلاً مع التفاف القلعة جهة اليمين، تصل إلى **الربع الثالث**، تمامًا مع انتهاء الأبنية المنتشرة على يسارك، اتفق الناس على تسمية ذلك الجزء المواجه للقلعة: حي المدينة، حيث يبدأ الربع الثالث من المهرجان، وهو الخاص بالطعام والشراب.
وسبب اختيار التجار لهذا الموقع بالتحديد، كونه مكانًا استراتيجيًا فاتحًا للشهية، فهو يطل على كتف نهر العاصي، يفصل بينهما شارعان للذهاب والإياب، ويفصل بين الشارعين منصف ترابيّ، المطرّز بأنواع الزهور وأشجار زينة!
الربع الثالث من المهرجان، استراحة المتسوقين، والذي اتصل –بسبب الحاجة- مع الرصيف الثاني المقابل للقلعة، بإطلالته الساحرة على النهر، فأقيمت عليه الاستراحات والمقاهي والمطاعم الخفيفة، وبعض الألعاب المتنوعة للأطفال!
يقضي المتسوقون وقتَهم في هذا المكان، بعد انتصاف يوم حافل، يأكلون ويشربون، استعدادًا لجولتهم الثانية، والتي تبدأ مع **الربع الأخير** من القلعة، الممتد من جهة المدينة الشمالية، ابتداءً من

نزلة الحاضر، مرورًا بجسر الكيلانية وجامع نور الدين الزنكي الأثري، لتنتهي مع مدخل شارع أبي الفداء، على وجه التحديد، لم أعد أذكر ماهية البضاعة المعروضة هناك لشدة تنوعها، كل ما أذكره أنني كنت أسمع بعض الباعة ينادون بالمكبرات الصوتية:

"أربع قطع بمئة ليرة سورية"

وآخر ينادي: "ثمانية بمئة"

وهنا: "مع كل خمس قطع، السادسة مجانًا"

كانت المنافسة شديدة، للبيع بالجملة، من مواد غذائية (المونة) التي لا يستغني عنها البيت السوري: من أرز وعدس وفول وحمص وطحين، بالإضافة إلى الزيوت والسمن الحموي والجبن الحموي، والكثير من الأصناف التموينية!

مع هذا الربع الأخير، **تكتمل دائرة كاملة**، وينتهي يوم حافل من التسوق!

مسكنٌ جديدٌ!

لنعد إلى الوراء قليلاً، إلى الربع الثالث تحديدًا، ذلك الذي وصفته بأنه خاص بالطعام والشراب!

في تلك الجهة المحاذية لنهر العاصي تمامًا، يمتد

شارع طويل، اعتاد الناس على تسميته **"شارع الكورنيش"**، من هذا المكان، تصبح القلعة على يسارك، والنهر على يمينك، ستذهلك **الهياكل الخشبية الدائرية**، المتراكبة بطريقة بديعة، مشدودة بكمّ هائل من القوة والحب، وبلمسة سحرية استندت إلى قناطر حجرية ضخمة، كعروس في ليلة زفافها، أثناء التقاط صورة تذكارية، تلك الهياكل الخشبية ليست إلا **نواعير حماة!**

مع بداية شارع الكورنيش، تمكث قليلاً لتقيم صلوات الحب مع أطلالها الخضراء، وقناطرها، وناعورتها الشجية، تكمل طريقك، مودعًا القلعة خلف ظهرك، مسايرًا مجرى النهرعلى يمينك، فتبدأ السكينة تتنزل على قلبك شيئًا فشيئًا، لترى البيوت الحجرية المصطفة على يسارك: **عتيقة:** على محيا أحجارها مسحة الحداثة، **عريقة:** تسمع صوت عراقتها من صمتها المهيب أمام النهر!

بهذا الاتجاه، سيأخذك الطريق يسارًا، ومن ثم صعودًا، لتواجهك بوابة من القناطر الحجرية الضخمة، والتي يسمونها: **باب النهر!**

بتجاوزك لتلك القناطر، ستصل إلى مفترق طرق: **على اليسار** تتوزع الأبنية بجهتها الخلفية، والتي

تقابل القلعة بجهتها الأمامية، **وعلى اليمين**، ستتابع صعودك بشارع ليس بالواسع جدًا، ولكنه يكفي لتمر به السيارات صعودًا ونزولًا، على أطرافه أبنية قديمة متهالكة، يُطلق على هذا الحي اسم **حي الجراجمة**، يليه **حي باب القبلي**، لتصل إلى **جامع السرجاوي**،حيث يصبح الطريق أكثر استواءً، لتصل بعدها، إلى أعلى نقطة معمورة، مُطلة على نهر العاصي، وبساتينه، وجميع أجزاء المدينة من حاضر وسوق، شارع **البرناوي**، الذي يعد من أجمل الإطلالات الساحرة في مدينة حماة!

كنتُ قد انتقلتُ مؤخرًا للسكن في تلك المنطقة مع عائلتي، ومن هذا العلو، اعتدت النزول إلى سوق القلعة (مهرجان الربيع) سيرًا على الأقدام، مستمتعًا بالمناظر التي يتجدد جمالها في عينيّ كل مرة!

من جامع السرجاوي، نزولًا إلى حي الجراجمة، مرورًا على مفترق حي المدينة، متجاوزًا القناطر الحجرية، لأصل إلى باب النهر، مكمّلًا طريقي إلى القلعة!

ربع ساعة تقريبًا، مسافة الطريق، وربما تزيد أحيانًا، عندما أتعمد السير ببطء، مستمتعًا بمشاهدة معالم المدينة، ولسبب إضافي هذا اليوم:

الاستمتاع برؤية الفرحة على وجوه الزوار، المتسابقين على ركن سياراتهم، تلك الصيحات التي تضيع تدريجيًا مع الأصوات البعيدة القادمة من المهرجان!

مية السلامة!

أسمع اسمي من بعيد، ألتفت باتجاه الصوت، لأجد رجلاً يتجاوز الخمسين بقليل، يهرول بعرجته الواضحة، مشيرًا بيده لأتوقف:

- أستاذ فريد! أستاذ فريد، شلونك؟

قبل أن أجيب.. يتابع:

-أرجو أن لا تكون قد نسيت الموضوع الذي أخبرتك عنه!

بعين مغمضة وأخرى نصف مغمضة، فينقذني:

- ما تذكرتني!

تقابلنا بالجريدة من فترة، طلبت منك تشوفلي شغل لإبني خالد، قالولي: رح نتواصل معك.. وهادا وجه الضيف!

يعني القصة بدها كل هالانتظار!

يتابع هذرمته:

- لقينا له عروس، من عيلة محترمة!

بس لازم يشتغل، بعد ما يتخرج دغري، قلت بلحق حالي بيشتغل دغري معاكم، دخيل عينك استاذ، لاقيلي حل!

أهز رأسي متابعًا، محاولًا تذكره:

-لا تقلق، سأتابع الأمر، ولكن كما تعلم، يا عمي، أمور التوظيف تحتاج إلى القليل من الصبر، لأن الذين تقدموا للوظيفة قد...

يقاطعني، وكأنه لا يريد أن يسمع:

-أنا معتمد على الله وعليك استاذ، والك حلوان مرتب اذا بيمشي الحال!

أجيبه مبتسماً لذكر الحلوان:

-لا تقلق، إن شاء الله سأبذل ما بوسعي!

يبدأ بعدها، بمناورة تحقيقية:

-إن شاء الله، إن شاء الله...

شو وين متسهل؟ عالمهرجان؟

سمعتلك إنهم رح يجيبوا فرقة موسيقية، ومغني، ومسابقات، وما بعرف شو!

ويضيف:

- الناس ما عادت متل أول، ماحدا عم يستحي، كلو راكض ورا بسطو!

ثم يهمس ضاحكًا، آخذًا بكتفي، وكأنه يريد أن

يخبرني بسر خطير:
- بس بتعرف شو؟
والله لوما الدكان كنت رحت، بس متل ما شايف الدكان بدا رجل مكسورة، يضحك مضيفًا:
وأنا رجلي عرجا عن حق وحقيق!
كنت أريد سؤاله عن سبب عرجته، لكن خشيت أن تنفتح المزيد من الأحاديث!
يكمل، وقد تغيّرت نبرة صوته لتصبح أكثر حزنًا:
-عم طلّع بالوجوه، حماة صايرة كلها غربتلية!
لازم تكتب شي مقال عن هاد الشي..
أنت قبضاي وكتابتك بتعجبني!
أجيبه باقتضاب:
- شكرًا، يا عمي، لقد تأخرت الآن، سأتابع موضوع خالد إن شاء الله، والحلوان عليك متل ما اتفقنا!
يبتسم ابتسامة رضا عريضة، يهزّ يدي مودّعًا:
-أكيد، أكيد... مية السلامة، أستاذ. مية السلامة!

صحفيان!

كانت خطواتي تسابق عقارب ساعتي، التي لمحتها بطرف عيني، إنها السابعة إلا ربع.

سأحتاج عشرين دقيقة لأصل إلى شارع أبي الفداء، حيث اتفقنا أن نلتقي، عند أقرب إطلالة على الحفل الغنائي، المقام بمدخل القلعة في تمام الساعة السابعة، أتحسس جيب سترتي القطنية الزرقاء، لأطمئن على مسجلي الصغير، الذي يرافقني دائماً، تحسبًا لأي حدث طارئ، أحدث نفسي:

يجب أن أسرع قليلاً، وإلا سأسمع محاضرة أنور المعتادة:

"الصحفي الجيد هو ابن الزمان المناسب والمكان المناسبين!"

وبالتأكيد سأجيبه بجوابي المعتاد:

"يا صديقي... الصحفي المتميز، هو من يصنع أوقاته!"

أبتسم، كلما استحضرت هذه الحوارات الطريفة، التي تجمعني **بأنور**، إنه من أولئك الأشخاص، الذين لا يظهر عليهم التكلّف أبدًا، لكنه في الحقيقة، يتكلف كثيرًا في تصريحاته، خاصة حين يتعلق الأمر بالعواطف أو السياسة أو حتى القضايا الاجتماعية! سريع في كلامه، تسبقه أفكاره، تلامس كلماته الحقيقة أحيانًا، وتفلتها أحيانًا أخرى، لكنه رجل شجاع، يعترف بخطئه في اللحظة التي يكتشف فيها

زيف فكرته، وهذه من أندر الفضائل في عالمنا اليوم، تستطيع أن تلمح معظم ما يفكر به، من خلال عينيه السوداوين، فيهما قلق دائم، كأنهما تنذران ببركان يثور فجأة، ثم يهدأ كأن شيئًا لم يكن!
وأكثر ما يدهشني فيه، هو قدرته على اختيار ملابسه بعناية، مع خفة دمه، مما يجعله يبدو أجمل مما هو عليه فعلًا، ولا أقول ذلك ذمًّا، بل إعجابًا بمقدار ما يصنعه الذوق من فرق!
مع أنور، يبدو كل شيء ممكنًا، كل فكرة قابلة للتحقق، وكل وهم قابل للنقاش!

الأبيض يبقى أبيض!

أحثّ الخطى، مختصرًا بعض الطرقات الرئيسية، متجاوزًا الازدحامات، ها هو أمامي، ألمحه يتحدث مع إحداهن، ناديته، منبهاً له بوصولي، فقال متعجباً:
-انظر إلى هذه الجماهير المتجمعة... إننا شعوب تحب التطبيل والتزمير!
يضحك، مضيفًا:
- ما ذنب هؤلاء الأطفال المحشورين هنا وهناك؟ لا يهمهم سوى الوصول إلى مكان الألعاب والمثلجات!

أجبته وقد أخذت مرفق يده مصطحبًا:
- إنها أرزاق يا أنور، مصائب قوم عند قوم فوائد! دعنا نذهب إلى مكان أقرب... أريد أن أرى الحدث من كل زواياه.
وسط زحام المهرجان، توقّف أنور فجأة أمام إحدى البراكيات، مشيرًا بإصبعه نحو لافتة إعلانية ضخمة، وقال بنبرة تمزج بين السخرية والدهشة:
- انظر إلى هذا الإعلان، "الأبيض يبقى أبيض، والأسود يبقى أسود"
أهو إعلان لمنظّف، أم شعار فلسفي جديد؟
ابتسمتُ، وأنا أتفادى صبيًا يركض حاملاً كيس فشار أكبر من رأسه، وقلت:
-لا تستهن بالأمر، يا أنور... التاجر اليوم أشبه بعالم نفس بالفطرة، يعرف تمامًا كيف يخترع علاقة حب وهمية، بين الزبون والبضاعة، حتى وإن لم يكن الزبون بحاجة إليها، أو لم يكن يملك ثمنها أصلًا!
أنور هزّ رأسه ضاحكًا:
- أو جاء فقط لإرضاء زوجته، أو ليملأ فراغًا عاطفيًا أو نفسيًا، أو، كما هو حال كثيرين هنا، ليتسلّى لا أكثر!

تابعتُ حديثي، دون أن أنظر إليه:

- بل الأدهى من ذلك، أن بعضهم يشتري فقط ليشعر أنه موجود، أنه فاعل، أنه يملك القرار، ولو كان القرار هو شراء مبشرة جبن لا يحتاجها، فقط لأنه يريد أن يُقنع نفسه أنه "قرر" شيئًا !

قهقه أنور وقال:

- لكن الأذكى من التاجر هو المروّج، يبدأ دائمًا بإعلان يخلق مشكلة لم تكن موجودة أصلًا، ثم يقدّم لك الحلّ كأنه المنقذ المنتظر!

أومأتُ موافقًا، وقلت:

- تمامًا، كأنهم يقولون لك: "نحن من أزعجك... ونحن من سيخلّصك، تلك الخدعة القديمة التي لا تزال تنطلي على الجميع!

أنور أكمل، وقد تحمّس فجأة:

- مثلًا إعلان التعرق هذا، تلك "المشكلة البشرية الأزلية" كما وصفوها، والتي لا حلّ لها سوى منتجهم السحري طبعًا!

كأن الناس لم يعرفوا الاستحمام وتبديل الملابس منذ آلاف السنين!

ضحكتُ وقلت:

- مع أن الحل الحقيقي، لا يتعدّى حمّامًا دافئًا،

وثوبًا نظيفًا، لا أكثر ولا أقل!

أشار أنور إلى اللافتات التي تكاد تزاحمنا في كل اتجاه:

- لكنهم لا يتركون لك فرصة للتفكير أصلًا! الإعلانات في كل مكان: على الجدران، فوق البراكيات، على السيارات، ولو استطاعوا، لوضعوها على صفحة السماء!

قلتُ ساخرًا، وأنا أتأمل إحدى اللافتات:

- وأنا، على الأقل، لم أر في حياتي لونًا أسود يتحول إلى أبيض، إلا الجيب، بعد جولة تسوّق!

أنور ضحك من أعماقه:

- صدقتَ! خلق الرغبة في الطرف الآخر هو جوهر الحب... وجوهر البيع أيضًا !

أضفتُ مبتسمًا:

- إذًا، هل نكتب مقالًا بعنوان: "كيف تُباع الرغبة، في كيس فشار"؟

فردّ وهو يربّت على كتفي:

- أو "كيف تتحوّل رغبة زوجتك، بشراء مفرش طاولة، إلى أزمة اقتصادية حقيقية"

مررنا آنذاك بجانب بائع يصيح في مكبّر الصوت:

- أربع قطع بمئة! مع كل خمس... السادسة مجانًا!
قلتُ بلهجة خفيفة، أقرب إلى الهمس:
- حتى الكرم صار مدروسًا تسويقيًا... مبرمجًا بعرض مدروس!
أجابني أنور، دون أن يلتفت إليّ:
-لا تنسَ... الأبيض يبقى أبيض!

المأمورية

أكملنا دورة كاملة حول القلعة، انعطفنا يساراً باتجاه **جامع النوري**، ومن ثم إلى تلك **القنطرة المنخفضة**، قرب مدخل المسجد، دخلنا فيها وصولاً إلى **حي الطوافرة**، ذلك الحي الذي يعبق بالتاريخ، كنا نمر بمحاذاة النواعير التي تصادفنا في كل مكان من هذا الطريق، إلى أن وصلنا إلى المخرج، حيث تعترض الشارع قناطر حجرية ضخمة، إنه شارع أبي الفداء، الذي ينتهي قبالة القلعة مباشرة، أما نحن، فانعطفنا يساراً، باتجاه مقهى المأمورية**!**
الذي يعتبر من المقاهي العريقة التي تطل على نهر العاصي، يمتاز بجوّه الساحر، يتخلله صوت النواعير، والكثير من صخب لاعبي الورق أو طاولة الزهر، أو الصرخات العالية أثناء مشاهدة

المباريات المحلية أو الدولية!
اعتدنا، أن نزوره بين الحين والآخر، نلعب الورق أو نتبادل الحديث عن مجريات الأحداث، سواء في العالم أو في الجريدة، كانت الساعة قد شارفت على التاسعة مساءاً، تذكرت حينها أمراً هاماً:

- أنور، اليوم عيد ميلاد أختي الصغيرة!

أجابني بعد أن أخذ مقعده:

- حقًّا؟ عيد ميلاد سعيد!

هل أحضرت لها هدية؟

- نعم بالتأكيد، إنها في السيارة!

في تلك اللحظة جاء إلينا النادل، قال بابتسامة لطيفة:

- مية السلامة بالأساتذة!

وأضاف:

- متل العادة.. (ميلو)؟

أشرنا له بالموافقة، فأشار لعامل المطبخ:

- يا ولد، أحضر اثنين ميلو للأساتذة على الطاولة...

السعادة..والحظ!

كانت أصوات المهرجان تختفي تارة، وتظهر تارة أخرى، تحملها النسمات العليلة ، مع حركة الناعورة التي **تعنّ** قربنا بهدوء رخيم!

المقهى يعجّ بالرجال والشبان في مقتبل العمر، اللعبة الأكثر رواجًا بين الرجال، طاولة الزهر.

أما الشباب، فلعبتهم المفضلة هي الورق، وخاصة الطرنيب والتركس!

تلك الألعاب التي تعتمد على الشريك الجيد، ومعرفة توزيع الورق، والقليل من **الحظ!**

أو ربما يكون الحظ هو الفيصل، لأن الحظ الجيد يختار لاعبيه، عندما تكون مستعدًا لتلقيه!

تقف في مكان جيد، ليراك، فيبتسم لك، عندها ستصبح سيد اللعبة عن جدارة!

تساءلت بصوت عالٍ، مع أنور الذي كان شاردًا يحدّق في الناعورة التي كانت تغني باسترسال وهدوء:

- ما الذي يجعل الإنسان محظوظًا برأيك؟

أجاب بعد سكتة لطيفة:

- الحظ، يا صديقي، يولد مع الإنسان.

هناك نوع من البشر، يولد وفي فمه ملعقة من ذهب، ونوع آخر يولد وفي فمه حفنة تراب!
مهما سعى من أجل تطوير نفسه، يبقى حظّه كما هو!
إنه، أمر قهري لا مجال للتحكم به!

- صحيح ما تقول...
هذا إذا اعتبرنا أن الحظ، يساوي المال!
نظر إليّ بخفة، ثم أعاد عينيه إلى الناعورة، وأجاب، كمن يسلّم بسر قديم:
- بالتأكيد يساوي المال، يا فريد!
من يملك المال يملك الحظ، ومن يملك المال والحظ، يستطيع أن يمتلك أي شيء!
أومأتُ برأسي موافقًا، ثم قلت متأملًا:
- نعم، ولكن أعتقد أن الحظوظ متساوية بين جميع البشر.
أعني، قد يكون حظك من المال وفيرًا، ولكن لا يمكنك التصرف به!
وقد يكون لديك المال، وتنقصك المعرفة!
وقد تمتلك المال، وتنقصك العافية!
إنها حظوظ متساوية بين البشر، إلا أنني أوافقك

في أن المجتمع الحالي، قد فرض علينا:
أن الحظ الجيد، مقترن بالمال الوفير!
ابتسم أنور، بعد أن نفث زفيرًا عميقًا:
- نعم، وهذا هو الحق في كل الزمان!

- ولكن، يخطر في بالي سؤال آخر...
هل السعادة مقترنة بالمال؟

-لا يهم، (يجيبني بنصف ابتسامة)**، أنا أرضى بأن أكون تعيسًا، ولديّ الكثير من المال،**
بالمال أستطيع أن أشتري كل أنواع السعادة!

- أفهمك جيدًا يا أنور، ما تقوله شيء صحيح تمامًا!
أدرك جيدًا أن السعادة مقترنة بالمال، ولكن، هل راحة البال وهناءه أيضًا تقترن به؟
أطرق أنور قليلاً، ثم هز رأسه وقال:
- لماذا تشغل نفسك بهذه الأمور؟
راحة البال ليست لأحد، لا للغني ولا للفقير
هذه هي حال الجميع...
عليك أن تجبر نفسك على السعادة،
السعادة اختيار!

ضحكت، ثم قلت بنبرة هادئة:
-أنا أعتقد أن القناعة هي راحة البال الحقيقية!
بمعنى أن ترضى بما قسمه الله لك،
ولا تنظر لغيرك،
ولا تقارن نفسك بالآخرين
عندها ستصيبك راحة البال،
فتتحول إلى سعادة غير مكتسبة،
عندها ستكون محظوظاً!

أثرٌ عابر!

قبل أن أنهي جملتي، لفت انتباهي النادل في المقهى، عاجلني أنور بالسؤال، وهو يلتفت إلى المكان الذي أحدّق فيه:
- ما بالك؟ ماذا رأيت؟ أين هي؟ أنا لا أراها!

- نعم... لقد رأيت!

- أين؟ ماذا رأيت؟

- رأيتُ رجلاً تعيسًا، يصارع شيئًا خفيًا في داخله، كان يمطّ يديه أمام رأسه، ويحرك رأسه يمينًا ويسارًا، ثم يرفع رأسه إلى الأعلى، ويرفع يديه في

الاتجاه نفسه، ويجبر نفسه على التثاؤب من تلك الزاوية تحديدًا!

كادت أن تكون هذه الحركات اعتيادية من شخصٍ مصلوبٍ ليلًا ونهارًا في هذا المقهى، ولكن تكرارها المتتابع، بنفس الطريقة، وبنفس التسلسل، وذلك الشعور بالراحة، الذي شعرتُ من خلاله، أنه انتقل من شخص إلى آخر، وتلك التعبيرات الإيحائية المرافقة لتلك الحركات الرياضية، كلها كانت تخبرني بالكثير، وتحرك بداخلي ذلك المتحرّي النفسي، وذلك الحسّ الصحفي الذي يدسّ أنفه وأصابعه في كل شيء!

- هممممم... أنت مخبول تمامًا يا فريد!

أتابعه بصمت، دون أن أثير انتباهه، يبدو أنه ذا شعبية كبيرة، رغم مظهره الرث، لم تكن تبدو عليه ملامح البؤس، إنه "محارب"، متزن، يعطي انطباعًا جيدًا وقويًا في آنٍ معًا، قطعت سلسلة أفكاري صوت أنور، وهو ينبهني بأن الوقت قد تأخر!

نظرت إلى ساعتي بطرف عيني، دون أن أترك متابعة النادل تمامًا:

- أوه... حقًا؟!

إنها العاشرة، هيا بنا، لنُسرع!

ضربة حظ!

اتجهنا إلى سيارة أنور، التي كانت مركونة قرب المقهى، متجهين إلى المنزل من طريق مختصر، بعيدًا عن صخب المهرجان وازدحامه، من طلعة الدبّاغة، المحاذية لسينما الشرق، صعودًا في شارع الدبّاغة، ثم بنك الدم، وطلعة الجزدان، مرورًا بالمحطة، حيث ينتهي الطريق الصاعد هنا، ويصبح الطريق أكثر سهولة، لنصل إلى مشفى دار الشفاء، وننعطف يمينًا، ثم يسارًا، ثم يمينًا، ثم يمينًا.

إلى منتصف ذلك الشارع الضيق، حيث تصطف السيارات بشكل متقارب جدًا.

لم تكن سيارتي هناك، فقد اتفقت مع أخي الكبير **سعيد**، أن يصطحب أختي الصغرى **حنين**، خارج المنزل، ليتسنى لأمي وأختي الكبرى، ترتيب المنزل وتزيينه، من أجل حفلة عيد الميلاد!

كان أكثر ما كان يقلقني هو رؤية أختي **للهدية**، التي نسيتها في التابلو، حيث اعتادت، أن تفتّش في جميع ما تراه أمامها من أبواب:

-آه، كم أنا غبي... سأفسد كل شيء!

ضربت كفي على رأسي!

كل ما أرجوه الآن، أن لا تلفت انتباهها تلك الجريدة الملفوفة والمرمية بداخل الصندوق، حيث عقدت في منتصفها سلسلة ناعمة من الذهب، متقصدًا أن يظهر في صفحة الأبراج اليومية، **برج السرطان**، ملوّنًا بالأحمر!

يا لغبائي..!

إنها من برج السرطان، وما أدراك ما برج السرطان، وحدسهم الفطري الذي لا يخطأ!

عندما دخلتُ المنزل، كانت الحفلة على وشك البدء.. أختي وأمي قد أنهتا كل الأمور الأساسية: من حلويات، والتزيين، أما المطبخ، وكأن معركة طاحنة دارت فيه، مابين بيض، وطحين، وخميرة، وكريمة خفق، وسكر، وشوكولا، والكثير من الصحون والطناجر!

أختي الكبرى، خبيرة الحلويات، دائماً ما تتكفّل بهذه المهمات، متعذّرة عن عدم شراء الحلويات الجاهزة بقولها: **"شغل السوق كله تجاري"**

وهي ليست بحاجة لسوق أصلًا؛ بارعة في الطهي، ورثت عن أمّي حسّ الطبخ، وأضافت عليه فنون التزيين والمخبوزات، بجمالها الهادئ وبساطتها المحببة، حتى إن أقرباءنا يستدعونها في كل

مناسبة.
أخي سعيد، الأكبر مني بخمس سنوات، اختار طريق الصناعة بعد تعثّره في المجال العلمي، لكنه برع في صيانة السيارات، وصار عقلُه عند أصدقائه "صناعة يابانية"حتى أنه كان يبتكر حلولًا، يعجز عنها كتالوج السيارة نفسه!
أما أنا...
فقد اختارتني الصحافة، أو اخترتها مجبرًا!
إلا أنني أفضّل العمل المكتبي، على الجولات الميدانية، رغم أن داخلي متأهبٌ دومًا للغوص في أعماق البشر، كأنني أغوص في جملة نحوية: نصب، ورفع، وجرّ... بحسب العوامل الداخلة عليه، **وهنا... مربط الفرس!**
لطالما أغوتني تلك النقاشات التي كانت تدور بيني وبين أختي...**سأقول لكم شيئًا..**
في المراحل الدراسية المتوسطة، ما قبل الجامعة، كثيرًا ما كنت أميل إلى تحليل شخصيات من حولي، وكانت أختي الكبرى تشاركني تلك "الموهبة"، أو ربما تلك "اللعبة"، نحاول من خلالها، أن نتكهّن طباع الناس المقرّبين، ابتداءً من أبي وأمي، وانتهاءً بأصدقائي وجيران الحي، تلك المداولات الليلية

كانت تبدأ عادة بجملة مثل:

هل لاحظتِ كيف سكت أبي فجأة اليوم أثناء العشاء؟

كان يتحدث بحماسة عن السوق، وفجأة صمت... نظر إلى طبقه كأن فيه شيئًا غريبًا!

فتردّ أختي، وهي تمضغ فكرتها:

- نعم... وبدت أمي منزعجة من شيء، لكنها ابتلعت كلماتها.

لم تعلق على أي شيء قاله، وهذا نادر جدًا!

- أظن أن هناك شيئًا لم يُقال، شيء معلق في الهواء، وكأن بينهما اتفاقًا غير معلن على السكوت... أو على تأجيل الكلام!

أتنهد، وأقول:

-العلاقات الطويلة أحيانًا تقول أكثر حين تصمت!

بالطبع، لم نكن نجرؤ على مفاتحة أمي أو أبي بهذه التحليلات، حتى لا يتهمانا بأننا لا ندرس، ونقضي لياليا في التلصص على تفاصيل حياتهما الشخصية! لطالما شجعتني أختي، أن أتجه نحو علم النفس، وهذا التشجيع المتكرر، هو ما زرع في نفسي الثقة، وأوقد في قلبي حب هذا الاستبصار الباطني لعقول

وقلوب الآخرين!
ولم تتوقف مشاركتي عند أختي فقط، فلم أتردد أبدًا، في نقل ملاحظاتي لصديق طفولتي **"زاهر"**، ذلك الصديق اللصيق، الذي يسكن في ذات الحي.
في المساء مع أختي... وفي النهار مع زاهر، الذي كان يشاطرني الشغف ذاته، بالعوالم الغامضة والمبهمة، أحاديثنا كثيرًا ما بدأت بسؤال من نوع:
- ما رأيك بذلك الرجل الذي يمشي قرب الحائط؟ لماذا يبدو مسرعًا؟
والطرافة أن الأمر لم يكن يتوقف عند البشر، حتى السيارات والجمادات كان لها نصيب!
لماذا هذه السيارة تقف بهذا الشكل؟
ماذا يعني أن تكون عجلة القيادة بهذا الاتجاه؟
هل صاحبها أعسر؟ هل كان مستعجلًا؟ لماذا لم يركنها بطريقة أخرى؟

إجاباتنا؟!
كانت مزيجًا من الضحك، والحدس، والمنطق العجيب الذي لا يمتّ للواقع بصلة، لكنها كانت تُحرّك عضلات المخ في اتجاه غريب وجميل!
رغم أنني لم أكن قد قرأت كتابًا واحدًا في علم

النفس، إلا أن شيئًا ما في داخلي كان يستيقظ ويقودني!

المورثات، مرة أخرى... كانت تتحدث بصوتها الفريد، لدرجة أن كثيرًا من أصدقائي كانوا يتحاشون النظر في عينيّ مباشرة، خشية أن أُخضعهم لتحليل نفسي من نظرة واحدة!

بعضهم كان يظن أنني أقرأ ما يفكر به، فقط لأنني كنت أصغي أكثر مما أتكلم!

لاحقًا، في المرحلة الجامعية، اقتنيتُ بعض الكتب، التي تتناول هذا المجال، ولطالما انخدعتُ بالعناوين البرّاقة التي تروج لـ**"إيقاظ القوى الخفية"** و**"كشف وسبر أغوار النفس البشرية"**

تلك الكتب التي تبيعك عناوينها على اعتبار أنها من **الأكثر مبيعًا في العالم!**

في الحقيقة، لم أخرج منها بأي فائدة تُذكر، سوى الكتب التي ألّفها **"ديل كارنيجي"**، والتي أعتبرها بحق كتبًا رائعة، بعد مدة، بدأت أتعرّف، على الكتب الاختصاصية في هذا المجال، التحليل النفسي لكبار المؤلفين، من غربيين وعرب على حد سواء.

فوضعتُ في رأسي قواعد هذا الفن، كأنني أعيد ترتيب مكتبتي الداخلية، وأرسي الأساسات الراسخة

لتلك الأفكار الطفولية التي كنت أمارسها بدافع التسلية لا أكثر، لم أختص في هذا المجال، لأنني أعتبره هواية ونزوة علمية لا أكثر.
درستُ الصحافة، وتخرجت من الجامعة، وبدأت العمل في جريدة **"الفداء"** التي تصدر عن محافظة حماة، لم يكن العمل في الجريدة هدفًا بحد ذاته، بل كان هدفي الأساسي أن أنشر أفكاري التي تساهم في حركة الشارع، من خلال صوغ المشكلات ووضع الحلول المناسبة للأزمات، كان أكثر ما يشغل بالي هو الشباب الضائع في الطرقات، الذين لا يعرفون كيف يديرون دفة حياتهم في الاتجاه الصحيح!

سنة حلوة يا..!

كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف تمامًا، عندما سمعت صوت سيارتي زمور في الخارج، حيث اتفقت مع أخي أن يضغطه ثلاث مرات متوالية، ليُعلِمنا أنهم قد وصلوا!
تسارع نبض البيت بشكل رتيب، أُطفأت الأنوار، وأُشعلت الشموع، الكل ينتظر شهقة المفاجأة، التي ستبدو على وجه أختي الصغرى، دلوعة البيت!

أكثر ما كان يشغل بالي، هو التأكد من يديها الفارغتين!
فتنهّدت تنهيدة عميقة، وركضت مسرعًا إلى السيارة، لأحضر الهدية.
عندما رجعت، كان الجميع قد بدأ الغناء:

"سنة حلوة يا جميل
سنة حلوة يا جميل
سنة حلوة، سنة حلوة،
سنة حلوة يا حنين "

من زمور عيد الميلاد إلى شارع الذكريات...
أدركت أن كل علاقة تُولد في لحظة ضوء، وتعيش في ظلال التحليل، وربما لا تنتهي إلا حين نقرر نحن إغلاق الباب!

٣

باب الشك!

سمعتك.. سمعتك!

في إحدى الليالي الشتوية، كانت كعادتها جالسة في الصالون، تتابع إحدى المسلسلات الهندية، يدخل باب البيت، الذي يدلف إلى الصالون مباشرة:

- مسا الخير!

- مسا الخير. الله يعطيك العافية يا ابني، فوت غسّل واتحمم، والعشا على الطاولة.
عاملتلك اليوم باطرش ومقالي بطاطا وباذنجان وسلطة!

لم يلحظ كلامها، كان مسرعاً إلى غرفته، ثم عاد بعد أقل من لحظة، مستدركاً عليها:

- إي، سمعتك، سمعتك!

بقلق تسأله:

- صاير معك شي يا زياد؟

يردُّ، متوتراً:

- سمعتك، سمعتك!

تُحدثُ نفسها:

- يبدو أن العمل لم يكن لصالحه هذا اليوم!

ملابسه لم تكن مرتبة كالمعتاد،عليها الكثير من

الشحوم والأعشاب اليابسة، **هل كان في الحقل؟ في أي حقل يا ترى؟ هل حصل معه حادث في السيارة؟**
بنظرة متأنية، تتابع حديثها مع نفسها:
لا يوجد شيء، لا دماء، ولا يبدو عليه أثر الإصابة!
قلب الأم، يجعلها تقفز من مكانها إلى النافذة، لتراقب السيارة المركونة على الرصيف المقابل:
إنها هنا، ولا يبدو عليها آثار الاصطدام!
تهمّ بالعودة إلى مكانها، لتصطدم به من خلفها، يهمهم مع نفسه، تعيد السؤال عليه:
-زياد، هل كل شيء بخير؟
فيعيد جوابه باستمرار:
- سمعتك، سمعتك!
كان كمن يريد أن يركّز على فكرة داخل رأسه، فيطرد ما يشتّت تركيزه بكلمة **(سمعتك، سمعتك)!**
تحاول الاستيضاح متذرعة بالشاي:
- بدك تشرب شاي بعد العشا؟

(لا يرد إطلاقاً)
يعود إلى غرفته كأنه نسي شيئاً ما، تذهب خلفه، تراقب قدميه من الساتر القماشي، واقفاً بسكون تام!

يخرج على عجلة، لتصطدم عيناه بعيني أمه، فيعود لغلق الستارة، يبتعد قليلاً داخل الغرفة، يخرج بعد برهة، تعلو وجهه ابتسامة عريضة:

-أهلين أم أحمد، والله...

إي إي، بشرب شاي..

ينظر الى الطاولة:

- وين الأكل؟

شو عاملة اليوم؟

متفاجئة:

- مو قلتلك عاملة باطرش ومقالي؟

وقلتلي سمعتك سمعتك؟

يجيبها وكأن شيئا لم يكن:

- إي إي، سمعتك!

تعود الأم إلى مكانها في الصالة، منكّسة رأسها، تدور فيه آلاف الأسئلة:

هل تناول شيئاً محرّماً؟

هل "بِحبحِب"؟

هل يتبع أصحاب سوء؟

تاركًا أمه عند هذا المنعطف، يلتهم ما تبقى من الباطرش، وكل ما كان موجوداً على الطاولة، ليعود إلى الصالون، يتمدّد على الكنبة التي أمامها:

- ساويتي شاي؟

- يلا، رح يصير.
تذهب إلى المطبخ، لتعود ومعها كأسين فارغين، وعلبة سكر، وإبريق للشاي وضعته أمامه:
- صبّ يا زياد!
قال بشرود:
- لا، انتي صبّيلي !
هنيهة، وينتصب جالساً على الكنبة:
- لا، ولا قلك: أنا رح صبّ!
كانت عيناه تلمع بالكثير من المعاني، مع كلمته الأخيرة، التي لم تستطع أن تأخذ منه حق ولا باطل!
كانت تطمئن نفسها:
إنه شاب في مقتبل العمر، وسيتدبر أمره بالتأكيد
الحياة ليست بهذه السهولة!
ثم تردد هذا الدعاء بسرها:

" الله يسهل أمرك يا ابني
الله يفتح عليك أبواب الرزق، ويبعد عنك أولاد الحرام! "

ما بين الموت والحياة!

كان صوت المنبّه يزداد صخبًا، مددت يدي لأُسْكته، وأنهض على عجل، لم أكن متأخرًا تمامًا، بعض المهام التي أجّلتها لوقت الصباح كانت بانتظاري..
أولها: لمسات أخيرة على مقالتي التي خصّصتها للحديث عن المهرجان، وضعت ركوة القهوة على نار هادئة، بعد أن أضفتُ للماء البارد البن، وتركتها لتغلي على مهل، بينما ذهبت لأستحم، متداركاً غليانها، توجّهت بعدها إلى **"ورشة الكلمات"** في ركن غرفتي الصغير، أرتشف أول رشفة ساخنة، وأقرأ العنوان: **"نبض القلب... حماة"**
بعض التعديلات هنا وهناك، ويصبح النصّ جاهزًا للطباعة والنشر.
قد انعزلت في هذه الغرفة عن بيت أهلي، ليس لأسباب شخصية تمامًا، بل لأن البيت – برغم دفئه – لم يعد يتّسع لتلك العزلة، التي تحتاجها الكتابة فالكتابة حياة مقلِقة، مليئة بالتقلّبات، يتحمّلها الكاتب بشغف، بينما قد يضيق بها مَن حوله!
لذلك، استأجرتُ شقة صغيرة، في منطقة **"باب البلد"** تتكوّن من غرفة نوم، وصالة استقبال،

ومطبخٍ وحمّام، تطلّ على مشهدٍ بديع لجزء من المدينة المزدحمة، في حيّ **"المرابط"**، قرب سوق الذهب، وشارع ٨ آذار، ذاك الشارع الذي يعجّ بالبسطات المتراصّة على جانبيه، والذي يُعرف بين الناس بـ"سوق الفقير" حيث يمكنك أن تجد كلّ ما يخطر ببالك بأسعار تُرضي محدودي الدخل.

منذ ساعات الفجر الأولى، يبدأ السوق بالاستيقاظ: الباعة يصفّون بضاعتهم، القصّابون يباشرون سلخ الجلود، وتقطيع اللحم، والدم يسيل في الزوايا وكأن معركة قد دارت للتوّ!

أما باعة الدجاج، فيتهيّأون لطقوس النتف، بحملهم لتلك الدلاء المملوءة بالماء الساخن، تعلو أصوات "البقبقة" من كل الزوايا، كأنها ابتهالات مخلوقة من مزيج غرائبي بين الذبح والتسبيح!

أصواتٌ متقطّعة، تارةً تصعد، وتارةً تخبو، كأن السوق بأكمله يتوضّأ بدمه، ويستعدّ لصلاة الفوضى!

خلال ذلك الشارع المزدحم، أهبط من غرفتي نحو سيارتي المركونة بهدوء عند أطراف شارع صلاح الدين، فعند نهاية نزول **"باب البلد"**، وقبل أن يبدأ **"شارع ٨ آذار"**، يمتدُّ شارع طويل يُعرف بـ**"شارع صلاح الدين"**، أما باب البلد نفسه، الذي

يعد من أهم أبواب مدينة حماة، وقد تحوّل لاحقًا إلى مقبرة للشهداء، ما تزال تعرف إلى اليوم باسم **"مقبرة باب البلد"**، أو كما يسميها العامّة: **"مقبرة باب الدرج"**، تضمُّ قبر المجاهد صارم الدين أزبك الحموي، أحد مماليك الملك المنصور، صاحب حماة في العهد الأيوبي، ظلّت قبة القبر قائمة حتى عام ١٩١٢، قبل أن تُهدم زمن المتصرف التركي ناظم أفندي، بذريعة أنها آيلة للسقوط، رغم أنّ الناس كانوا يتوافدون إليها، يطلبون الشفاء والبركة.

اليوم، لم يبقَ من معالم المقبرة القديمة شيء، بعد أن أُقيم على أنقاضها **"مسجد عبادة بن الصامت"**.

كعادة المقابر، هناك دومًا ارتباطٌ روحي أو رمزي بينها وبين المساجد، ترسّخ هذا الأمر في وعينا الجمعي حتى بات بديهيًا!

وما هو، إلا تكرارٍ لما حدث منذ قرون، حين اقترح على من رأى أهل الكهف وقد ماتوا **"ابْنُوا عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا"**، فتأثر الناس بهذه الآيات، وصار كل قبر يُندرس، يُبنى عليه مسجد!

ولعل ذلك أفضل، رعاية لحرمة الأموات في تلك البقاع، فبقاء المسجد، وإقامة الدعاء والصلوات فيه، يؤنس الميت في قبره، ويبقى أكرم له من أن يُبنى

فوقه ما لا يناسب مقامهم!
مابين الموت والحياة، يعيش نوعٌ منفصل، ليس هو على قيد الموت فنترحّم عليه، ولا هو على قيد الحياة فنسعد به، إنهم الفقراء، أصحاب الدخل المحدود، الذين يسعون إلى لقمة عيشهم بكدّ وجهد، بكل رضا وسرور، أسمع أصداء صوتهم تعلو، مع انطلاقة أولى أشعة الشمس:

يا رزاق... يا كريم... يا فتّاح... ياعليم
استفتحنا بحمد الله!

تلك الكلمات والتهاليل الصباحية، تُشعرني بالطمأنينة والسكينة، أثناء مغادرتي ذلك المكان الذي يعجّ بالإيمان والحياة والصلوات، تحفّني نظراتهم الحانية، وإيماءات التحايا:

"مية السلامة أستاذ!"
"يا هلا أستاذ!"
"الله ييسّر أمرك أستاذ!"

إنه مكانٌ جاهزٌ للعبادة، بل وجاهزٌ للكتابة، كمقالٍ في صفحة أولى!

نصيحة مكانيكي!

أتنفّس رائحة النعناع، والبقدونس، والخيار، والبندورة الطازجة، مع استمراري في المضيّ من هذا الشارع المزدحم، تمتزج معها رائحة اللحوم الطرية والدجاج، كأن السوق يقدّم لي إفطاره اليومي قبل الوصول إلى سيارتي المركونة، أتفحّصها بنظرة سريعة، أشغّلها قليلًا، لأتأكد من عمل البطارية، كي لا يصيبها التكلّس في هذه الأجواء المتقلّبة بين شتاء وصيف، نصيحة ثمينة من أخي **عبقري الميكانيك!**

أثناء تشغيل السيارة، أُدير المذياع، فيرافقني صوت فيروز... يرتفع تارة، وينخفض تارة، ليفسح المجال لمذيعة ذات صوت رائق، تحيي الصباح كما لو كانت تستنهض الروح، تدفعها بلطف لتدخل في معركة الحياة اليومية، متسلحة بالإيمان والموسيقى!

أُغلق المذياع بعد أن اطمأننت على البطارية، أقفلتها، وأكملت طريقي مشيًا في ذات الشارع، تطلّ لافتة من بعيد، بخط واضح وكبير:

(جريدة الفداء)

بناء متهالك بعض الشيء، لكن له هيبة الماضي،

وروح تتطلع إلى المستقبل، حيث ما زلنا ننتظر وعود الانتقال إلى المبنى الجديد!

أبي الفداء

جريدة الفداء: صحيفة محلية تصدر من قلب محافظة حماة، بثماني صفحات فقط، لكنها تملأ اليوم بكامله في حياة العاملين فيها، منذ عام ١٩٦١ وهي تنبض بالحبر، بدأت بأربع صفحات، ثم اتسعت كما تتسع المدن بعد الزلازل، صفحة تلو الأخرى، حتى استقرّت على شكلها الحالي.

الصفحة الأولى: محراب السياسة، موطن الأخبار الكبرى، والتحليلات المربكة، حيث الكلمات تزن الذهب، وكل فاصلة يمكن أن تخلق أزمة.

الصفحة الثانية: قلب الجريدة النابض بالحياة اليومية للمحافظة، شكاوى الناس، ردود المسؤولين، والهموم التي لا تجد من يسمعها إلا الورق.

الصفحة الثالثة: تحقيقات ميدانية، وروائح المصانع، وأصوات عمّال الصباح، بالإضافة إلى زاوية "ما قلّ ودلّ"... التي غالبًا ما تقول أكثر مما يُقال في صفحة كاملة.

الصفحة الرابعة: اقتصاد وتنمية **يوم الاثنين**، آراء

حادّة وزوايا أكثر حدّة،
ويوم الثلاثاء: يُفتح باب "الأوراق"، لكل من يرغب في الكتابة على حافة الحلم.
ويوم الأربعاء: مخصص للأطفال: "براعم الفداء"حيث الحروف تلعب، وترسم، وتضحك، وتعلّم.
ويوم الخميس: هواء نقي، علوم وبيئة، ومقالات مترجمة عن عوالم لا نعرف عنها إلا ما يصلنا عبر الحبر.
لم تكن لي علاقة تُذكر بالصفحة الأولى، فالسياسة بالنسبة لي حقل ألغام، لا صوت فيه يعلو على صوت الانفجارات، ومحرّراته، رغم أناقتهنّ، يكتبنَ بقلق دائم... وكأن الحرف عندهنّ يمشي على رؤوس الأصابع، **أحببت دومًا الصفحة الثانية..**
هناك، حيث كنت أتعاون مع صديقي أنور، بتغطية أخبار المدينة، نلتقط الصور، نوثّق الأحداث الصغيرة، ونفتح نوافذ للأصوات التي لا يعلو صراخها فوق صمت الإهمال، وأحيانًا، كنت أُطلّ من الصفحة الأخيرة، ببعض المقالات الاجتماعية التي أراها من زاويتي، كأنني أكتب رسالة طويلة

إلى نفسي، في جمل مطوّلة، تعبّر عن ضجيج الداخل، بأقل قدر ممكن من الضجيج الخارجي!

خفايا..ووجهة نظر!

عندما التقيت بأنور هذا الصباح، كان منهمكًا بإقناع المسؤول عن الندوة، بأن يقدّم المشروبات الساخنة والساندويش السريع **مجانًا**، وذلك لأنه **ربح جائزة** في مهرجان البارحة، رائحة القهوة تعجّ بالمكان، مع نكهة الهيل الساحرة، التي تتغلغل وتذوب في الحواس، فتنعش الروح كأنها خُلِقت للتوّ!
إنها نكهة الصباح الأزلي، مصحوبة بدندنة أنور الصاخبة:

"راجعين يا هوى... راجعين
راجعين يا زهرة البساتين..."

قاطعته مبتسمًا:

- إلى أين سترجع، أستاذ أنور؟

يومئ برأسه مبتسمًا، بعيونه المليئة بحكايات غير مكتملة:

- صباح الخير، أستاذ فريد... سأرجع إلى المهرجان، بالتأكيد!

ثم أضاف، وقد تقلّصت ملامحه الجادة، في لحظة

مزاح:

- أخبرني، كيف كان حفل الميلاد؟

تنهدت:

- أوه، كان حفلًا جميلًا... هادئًا، وكان حظي جميلًا أيضًا، لأن أختي لم تنتبه للجريدة المخبأة في درج السيارة!

ضحك بدهشة:

-هل كنت قد تركتها هناك؟

- نعم، نسيتها..

- أوه، تذكّرت!

ينهض من كرسيه مسرعًا، يتجه نحو المطبخ ليحضر فنجانين، عينه معلّقة بالركوة التي توشك أن تفور، لكنه يُميلها برشاقة، إلى طرف الغاز المشتعل، فيُبقيها على أهبة الغليان، بحيلة مراوغ، يلاعب عشيقته المدللة!

- هل كتبت المقال عن المهرجان؟

سأل وهو يفتح درجه، كأن الموضوع لا يحتمل تأجيلًا.

أتنهّد وأنا أهبط على مقعدي بثقل:

- نعم، وضعت اللمسات الأخيرة عليه هذا الصباح.

- جميل، جميل.

قالها وهو يحرك القهوة، يراقب فورانها كأنه ينتظر وحيًا:

- أنا متحمّس لقراءته في صفحة اليوم.

أبتسم، أراقب أناقته التي لا تشبهه اليوم، فأراوغه بدهشة:

- وما هذه الأناقة على غير عادتك؟

تبدو هادئًا، وسيماً، كعريس في صباحية عرسه!

يضحك بصوت عالٍ، يهز رأسه، وكأنه ضُبط متلبسًا بشيءٍ لذيذ:

-هل هذا واضح عليّ حقًا؟

أقرّب كرسيي منه، بصوت خافت:

-أخبرني، من قابلت بعد أن تركتني البارحة؟ هل..

يقاطعني، وضحكته تعلو أكثر، صريحة، واثقة:

-نعم، نعم!

كانت ليلة مجنونة يا فريد، لم أنم إلا ساعة واحدة، ومع ذلك أشعر بنشاط غريب، وصخب داخلي!

(يرتشف أول جرعة من فنجانه)
النساء، يا صديقي، هنّ سر الحياة!

- نعم، أرى ذلك بوضوح!
عمّ الهدوء المكان بانتظار فنجان القهوة، وقد لفت انتباهي، بين الأكوام المكدّسة من أوراق الصحف اليومية، عنوان لافت في إحدى الصحف: **"خفايا الإدمان"**، سحبت الصحيفة برفق، أمعنت النظر فيها، قرأت بعض النقاط المهمة بعين متفحصة. كان مقالًا طبيًا، من جريدة، تصدر من محافظة دمشق، يشرح مشكلة منتشرة في أغلب المحافظات، الإدمان، وبعض النصائح الخاصة بالتغلب عليه، وطرق وقاية الآباء لأبنائهم منه، رميت الصحيفة على الطاولة بلا مبالاة، وتناولت الفنجان الذي أعدّه أنور، لآخذ أول رشفة منه، مرّة، تلسع لساني وذهني معًا، همست بصوتٍ خافت:
- أنور... ما رأيك بالإدمان؟
ربما كان صوتي ضعيفًا حقًا، أو أن أنور كان غارقًا في عالمه الخاص، رفعت صوتي:
- ما رأيك بالإدمان، يا أستاذ أنور؟
أنور... أين أنت؟

- هنا، هنا معك! (يجيب ضاحكًا)
الإدمان شيء رائع يا صديقي... أن تدمن الحياة، وتدمن التفاصيل الصغيرة والكبيرة، أن تدمن الحب، تدمن النساء، تدمن العمل!
الإدمان شيء رائع يا فريد، وشيء لا بدّ منه لتستمر الحياة بالتقدّم.
لولا الإدمان، لما كان هناك شغف للحياة، ولَازدادت نسبة الانتحار أضعافًا مضاعفة!
لا تسعفني إلا ضحكة عالية، مع مثل هذا الجواب من رجل نصف نائم ونصف حالم، برغم ما فيه من الحقيقة، أحاول أن أجعل الموضوع أكثر جدية:
- الإدمان يا أنور، هو سبب من أسباب الانتحار!
لكنه نفى سريعًا، وبإصرارٍ غير متوقع:
-لا، لا، أبدًا!
عندما تقطع المدمن عمَّا يدمنه، لا يسعه إلا الموت، ليحتجّ بموته على ما منعته عنه
فلا يعوّض الحرمان إلا الموت!
بحجم إدمانك وحرمانك، تكون خسارتك!
رفعت حاجبي، متحديًا هذا المنطق:
- أنت تتكلم بمنطق معكوس يا أنور!
الحقيقة تقول: لماذا تدمن أصلًا على شيء يهلكك؟

أفهم أن هناك إدمانًا إيجابيًا، كالإدمان على العمل، أو الإدمان على الحب بكل معانيه!
لكن الإدمان هنا ليس بمعناه الحقيقي، وإنما هو مصطلح أدبي، لمعنى الهوس والهيام.
أما الإدمان المقصود هنا، فهو ذلك المرض النفسي، الذي سببه تعاطي المهلوسات والمنشطات، التي تودي بحياة الإنسان، وتُدهور حياته الجسدية والنفسية والعقلية!
توقف قليلاً، ثم قال:
- نعم، ربما ما تقوله صحيح..
ولكن، لو منعت عني حبيبتي، بالتأكيد سأموت منتحرًا!

- لن تموت إلا عندما يحين أجلك!

- إذًا، سأغامر بكل ما أملك، لأبقى مع حبيبتي التي أدمنت عليها!
ارتشفت آخر رشفة من فنجاني، وقلت له:
- كلنا مدمنون يا أنور... لكن منّا من يموت حبًّا، ومنّا من ينجو بالشقاء!

زيارة من مقالة!

بينما كنا على تلك الحال، ظهر "البوّاب" فجأة:
- أستاذ فريد، هناك شخص ما على الباب يسأل عنك، يقول إن اسمه "خالد"، ويريد مقابلتك بشكل مستعجل!

- أين هو؟

- في الكافتيريا!
اقتربت، فرأيت شابًا في مقتبل العمر، أشقر الشعر، عينيه خضراوتان، جميل الطلعة، ذو جسم نصف ممتلئ، بعضلات بارزة، لقد صقلت الحياة القاسية في طفولته قوته وصلابته، يدخّن بشراهة، يشرب قهوته ببطء، يتأمل السيجارة المشتعلة بين أصابعه كأنها قصة تنتظر أن تروى، بادرته بتحية دافئة:
-صباح الخير، خالد!
انتفض من مكانه، كمن أيقظته من سبات عميق، أطفأ السيجارة داخل كوب القهوة الكرتوني:
- أهلاً، أهلاً أستاذ فريد!

أنا خالد، والدي الذي يعمل في الدكان قرب باب النهر، أخبرك عني!

- نعم، نعم، تذكّرته... كيف حاله؟
سمعت منه أنك على مشارف حياة جديدة، وأنك قد خطبت إحدى الجميلات!

- إي والله، خطبت..
تلا هذه الـ**"إي والله"** ضحكة، تبدّت منها أسنانه الصفراء، وتغيّرت ملامح وجهه تمامًا، ليس تحوّلًا إلى قباحة، كان يضحك بكل جزء من أجزاء وجهه، كرجل لم يضحك منذ سنين، تكسّرت معها كل تضاريس وجهه، لم أستطع تقييم هذا الشاب تقييمًا واضحًا، فهو أقرب ما يبدو إلى الوحشية منه إلى اللطف والاحترام، جلست معه، سألته عن دراسته وقدراته، وكانت المفاجأة: أنه لم يدرس في الجامعة، ولم يتخرج من كلية الإعلام كما أخبرني والده!
تابع قوله:
- لقد سافرت إلى دمشق بنية التعلّم، ولكن لم أستطع التأقلم مع الجو الجامعي، وفي نفس الوقت، لم أستطع أن أخبر والدي بذلك، فبقيت في دمشق لأربع سنوات أعمل في مجال التصوير، في إحدى

المحلات، وفي كل سنة، كنت أخبر والدي أنني نجحت إلى السنة التي تليها، هكذا حتى أكملت الأربع سنوات، بدون شهادة جامعية!
ولكن لديّ الخبرة الكاملة في مجال التصوير، أرجو ألا تخبر أبي بذلك!
كلامه، في الحقيقة، جعلني أشعر بالسعادة لعدة أسباب:
أولها: أن ظني لم يخب فيه، فهو لا يبدو عليه سيما خريجي الجامعات!
وأفرحني ثانيًا، لأنه اعتمد على نفسه، ولم يشأ أن يخبر والده حتى لا يشعره بالحزن، ثم إنه لم يضع وقته كما يفعل باقي الشباب في التسكّع هنا وهناك..
لكن، لم أستطع أن أعده بشيء، فقلت له بعد أن سكتُّ هنيهة:
- اسمع يا خالد، الأمور هنا لا تسير بهذه الطريقة، ولكن سأحاول جاهدًا أن أجد لك شيئًا يمكنك أن تبدأ منه.
أجاب بلهفة الغريق:
- أرجوك يا أستاذ، سأكون لك شاكرًا... أنا وعروستي التي تنتظرني!

- نعم، بكل تأكيد!

-لا أريد أن أشغلك أكثر من ذلك..
قالها وهو ينهض، وينفض عنه بقايا ما خلّفه من رماد سجائره، ثم صافحني قائلًا:
- سأنتظر منك خبرًا، أستاذ فريد..
أجبته مصافحاً له:
- نعم، سأحاول بأقرب وقت. سأزور أبيك وأخبره بالتفاصيل.

- متى يمكنني أن أحصل على جواب منك؟
(يعيد السؤال مرة أخرى)

-لا أدري، ولكن سأتواصل معكم في أقرب فرصة.. دوّن لي رقم هاتفكم، حتى أتصل بك عندما أجد فرصة تناسبك.

-هل سيكون عملًا مضمونًا؟
هل ستكون وظيفة معكم في الجريدة؟ أم ماذا بالضبط؟

-لا أعرف إلى الآن، ليس لدي فكرة.

- تمام، تمام...

يهمّ بالانصراف، بعد أن دوّن رقم الهاتف على ورقة صغيرة، مشى خطوتين إلى الأمام مودّعًا، هممت بالعودة إلى مكتبي، لكن تفاجأت بعودته مرة أخرى:

-هل من الممكن أن أتصل بك لأذكّرك؟

- أوه، لا تقلق، أنا سأتصل بك

- أرجوك، فلا أريد أن تنسى..
لن أزعجك، سأتصل بك بعد أسبوع من الآن!

- لاتقلق، سأتصل بك عندما أجد شيئًا مناسبًا، وبكل الأحوال، سأسجل لك رقم هاتفي!

كتبت له الرقم على طرف جريدة، وناولته إياه..

في طريق خروجه من مكتبي، لم ينسَ أن يُلقي التحية على أنور، الذي كان يجلس منصتًا، مبتسماً لتلك المحادثة العجيبة!

ابتسامة غامضة!

كنت على وشك أن أسأله عن سبب ابتسامته الغامضة، ولكن، قاطعني عودة خالد:

-أستاذ... ممكن طلب أخير قبل أن أذهب؟

لم يتمالك أنور نفسه من قهقهة خفية، مع غمزة أخفاها بعناية، أثناء نظره إلى نافذة المكتب.

- نعم، بالتأكيد... تفضّل؟

- لا، ليس هنا... على انفراد، لو سمحت!

- نعم، بالطبع.

أقترب منه.. **قل لي، ماذا تريد؟**

همس في أذني، وفي عينيه نظرة استحياء:

-أريد أن أطلب منك بعض المال لأعود إلى البيت، فليس معي أي شيء، ولا أستطيع العودة ماشيًا!

دسست يدي في جيبي:

- حسنًا، كم تريد؟

بنبرة خجولة:

- خمسون ليرة!

- ماذا؟ هل ستعود إلى البيت بالتكسي؟

يجيب مرتبكًا:

- لا، ولكن أوصاني أبي على بعض الخضار والفاكهة من شارع ٨ آذار، وقد أضعت المال!

لا أدري أصدقه أم لا ، ولكن قلت له:

- حسنًا، لا بأس... سأعطيك ٣٠ ليرة!

أخفاها في جيبه بسرعة، قائلاً:

- شكراً، أستاذ... سأعيدها لك في أقرب وقت!

-لا تقلق. أرجو لك التوفيق.

قبل أن يغادر نهائيًا، ظل يذكّرني بالاتصال به.

" سأتصل بك بعد أسبوع "

عندما عدت إلى المكتب، كان أنور غارقًا في الضحك، ثم قال:

- دعني أحزر.. هل طلب منك بعض المال؟

أجبته مستغربًا:

- نعم، كيف عرفت؟

ازدادت ضحكاته:

- أنا أعرف تمامًا هذا الصنف من الناس، وأريد أن أنصحك: لا تكن لطيفًا أكثر من اللازم!

- لا أفهم ما الذي ترمي إليه،ولكن لا أعتقد أنه من هذا النوع من الناس، التقيت بوالده وهو رجل مسكين، أحاول مساعدته في الحصول على وظيفة لابنه.

أجاب بلا قناعة:

- نعم، نعم... كلنا مساكين، بطريقة أو بأخرى!

في الحقيقة، كلام أنور، والهيئة التي رأيت بها خالد، أوحيا لبعض الشكوك أن تتسلل إلى رأسي!

كما أن تلك الضحكة التي أطلقها خالد في مصافحته الأولى، ما زالت ترتسم في عقلي بشكل لا إرادي، كابتسامة غير محسومة في لوحة لم تكتمل!

هذا ما جعلني أتوقف قليلاً، قبل أن أسأل له عن عمل.

في عالم المقالات، تعوّدت أن أقرأ الوجوه كالعناوين... لكن ابتسامة خالد لا تصلح لعنوان، بل لفصلٍ لم يُكتب بعد!

شيخٌ ورُقية!

في إحدى الصباحات النسائية، كانت أم زياد، أو دعنا نقل (أم أحمد)، لأن أحمد هو ابنها الأكبر والذي افتتح مؤخرًا معملاً للألبسة، ووظّف فيه أخاه زياد مندوبًا للتوزيع.. بالإضافة إلى أحمد وزياد، فقد توّجت العائلة ابنة وحيدة، تعمل مدرّسة لمادة اللغة العربية، في إحدى المدارس الحكومية.

في أيام العطل، كما اليوم، كانت تجلس بانتظار هاتف ابنتها، الذي يرنّ في مثل هذا التوقيت تماماً، وبعد تبادل الصباحات، تسألها:

- ما عرفتي إنو زياد عم يشتغل مع أحمد؟

- والله؟ ليش ترك الشغل عالبولمان؟

- لا، لساتو، بس كل كم يوم، بيوزع بضاعة على محلات سوق الطويل، شغلو بالشركة، مو كل يوم، ومرات بيخلص ع بكير، بيجي عالمعمل بيساعد أخوه، وبيكسب كم ليرة، والمساويات بيشتغل عالتكسي!

- ما شاء الله، الله يرزقهم ويسعدهم.
وإن شاء الله تفرحي بزياد عن قريب!

- آخ، والله حسرة بقلبي هالصبي. ما بعرف ليش ما عم يعجبوه هالبنات. مرات بحس إنو موسوس، أو يمكن مسحور.. والله ما بعرف!

- موسوس؟ شلون يعني؟

- يعني بيدقق كتير عالتفاصيل، ومرات بيسأل كتير أسئلة حشرية..

- آها.. متل شو؟

- إي والله، مو شفتي آخر وحدة رحنا شفناها؟ على أساس عاجبتو..

- إي، بتذكر، كان طاير عقلو فيها!

- إي والله، والبنت كتير منيحة، قرينا الفاتحة على نية التيسير، مرات بيحكي معاها على التلفون، ما

بعرف، بس أنا حسيت إنوعم يلتقي فيها وعم يخبّص!

- أوف، مصيبة !

- إي والله، أنا نبهته أكتر من مرة، بس ما عم يرد، بيقلي: ما دخلك!
ومرات بيقول: بدي أتعرف عليها أكتر..
أنا خايفة من شي مصيبة بآخر هالعمر!

- معك حق يا أمي، بس زياد واعي،
وأكيد ما رح يقرب على الحرام!

- ما بعرف إذا واعي ولا لاء...
مرات بقول: هموم الشغل
مرات بقول: من التعب
مرات بقول: ضايج، بدو يتزوج..
ومرات... ما بعرف!

- شوفي يا أمي، في شي؟
احكيلي، لاتشغلي بالي!

- ما بعرف، بس عم فكرآخده على الشيخ .....
قالولي إنو بيعرف بهالقصص، خلي يعمله رقية حتى يتحسن شوي، أو نشوف شو صاير معاه!
يعني بركي حدا كاتبله شي، أو عامله شي، أو مطعميه، أو ساقيه شي... بعيد الشر!

- لا يا أمي، بعيد الشر!
ما بظن في شي من هالحكي، زياد؟ كل الناس بتحلف براسو، سمعته متل المسك، وما فيه شي يمكن شوي من هموم الحياة، أو ضغط الشغل..
يلا، صار لازم تستعجلي وتزوجيه !

- ياريت القصة موقفة على الزواج!

- ليش خير شو صار كمان؟

- مرات بالليل بسمع وتوته، ومرات بسمعو عم يقرأ قرآن بصوت عالي، بقول بقلبي: الحمد لله، الله يهديه!، ومرات بسمعو عم يصرخ، أو عم يكفّر، أو بيحكي مع حالو!

ومرات بيحكي كلام ما عم افهم عليه؟ مسكة؟ وابرميها؟ وليش عم تلعبي بالمسكة؟ والله ما بعرف.. ما بعرف شو بدي أعمل؟!

- معقول؟ شو هي المسكة؟ من إمتى هيك صاير معاه؟

- فجأة... تقريبًا من بعد ما قرينا الفاتحة مع أول بنت، مو هاي البنت، اللي قبلها، يلي كانت ساكنة بالشريعة!

- إي، هديك مقصوفة الرقبة، ما حبيتا أبدًا، شايفة حالها!

- إي، بس أخوكي كتير تعلّق فيها، صار كل يوم يروح ع حارتهم، ويضل مستنيها لما تروح عالمدرسة، ويستناها لما ترجع من المدرسة، ويرجع تعبان، بياكل وبينام، حتى مرات ما بيروح عالشغل منشان يراقبها!

- لا حول ولا قوة إلا بالله! منيح اللي خلص منها.

- من بعدا تغيّر زياد كتير!

- معقولة عاملتو شي عمل؟

- والله ما بعرف، من شان هيك بدي روح شوف هالشيخ!

- اي مو غلط، روحوا عالشيخ... والله اذا عاملتلو شي لأخرب بيتها!

- رح اتصل بالشيخ اليوم وآخد موعد، لأن عم يقولو كتير زحمة عليه!

- إي مو غلط أمي، روحي بأسرع وقت، وطمنيني شو بيصير معك، ما تشيلي هم، يعني هو قرآن إذا ما فاد ما بيضر !

- إن شاء الله، الله يحميكم ويرضى عليكم!

٤

باب السؤال

نقطة.. ما قبل آخر السطر!

في صباح مثقل بالهموم، كانت الأم تعد الفطور بصمت، سمعت خطواته، بطيئة، كأنها تسحب خلفها ليلًا طويلًا!

جلس على طاولة المطبخ الفارغة، دون أن يتكلم..

كانت أمه تعد الفطور قالت له بهدوء:

- صباح الخير يا زياد..

أومأ برأسه، عيناها تراقب وجهه الشاحب، ذقنه التي لم تُحلق، وحركة يده، وذلك **الكف الأسود مقطوع الاصابع الذي لم يعد يخلعه!**

جلست قربه، لم تتكلم..هوأيضًا بقي صامتًا، ثم تمتم:

- تعبان.. ما صار الأكل!

وضعت يدها على كتفه، وقالت:

- ارتحت مع هاد الشيخ؟

اذا ما عجبك، منجرب شيخ تاني.. المهم ترتاح يا حبيبي!

لم يعترض...بقي صامتاً، ينظر إلى الأرض بعيون شبه مغمضة.. ثم انسحب إلى غرفته قائلاً:

- بس يصير الأكل فيقيني!

جولة تذكارية!

كانت السيارة تصدح بـ**"اللالا الحموية"** من الحنجرة الذهبية **نجيب السراج**، والذي يُقال - بحسب بعض الروايات الموسيقية - **إنه أول من اخترع اللالا!**
تلك تفاصيل لا تهمّ، بقدر ما يهمّني الاستماع والاستمتاع، بذلك الصوت الشجي:

"أنا عطيتك روحي، يلا عطيني بدالا"
وما الذي يمكن أن يُعطى بدل الروح؟
لا شيء... إلا الروح ذاتها، قطعًا!
بالتزامن مع انتهاء الأغنية، كنت قد وصلت إلى **ساحة العاصي**، ثم انعطفت باتجاه **جسر أم الحسن**، قرب **حديقة أم الحسن**، حيث يرتصف على يمين الجسر القديم، **مسجد العبيسي الأثري**، وعلى يساري الحديقة، التي تحتضن بساتين واسعة، يتخللها **نهر العاصي** تتغذّى أشجارها من ماءه العذب كطفل رضيع!
كان موعدي مع **أنور** هنا، في هذه الحديقة، عند المدخل الآخر **"الجنوبي"** قرب **ناعورة الجسرية**، أما المدخل الذي دخلتُ منه، فكان من الجهة القريبة

من **"الحاضر"**، المقابل تمامًا لـ**حي الشرقية**، فإذا جعلت هذا الحي خلفك والحديقة أمامك، سيكون عن يمينك طلعة الحاضر أو**الأميرية**، من هنا رسميًا تبتدأ أحياء الحاضر بالتوزع ما بين أحياء: **البارودية، وسوق الحاضر الكبير وسوق مدحت باشا**، ثم **المناخ وطريق حلب** و**القصور وغيرها.**

ومن الجهة الأخرى تبتدأ **"أحياء السوق"**، ابتداءًا من ساحة العاصي، **وساعة حماة**، ثم **شارع العَلَمين**، يتفرع عنه، **أحياء الشريعة، وأحياء المرابط، والدباغة**، صعودًا إلى الأحياء الأخرى.

كان الباعة المتجولون، يرتصفون أمام باب الحديقة، يبيعون المرطبات والبوظة والكثير من الألعاب والنفّاخات، بعد المدخل، بضع درجات واسعة تهبط منها عبر الدرج الحجري الواسع إلى الحديقة، حيث تصادفك: أشجار وارفة، وحديقة حيوانات صغيرة فيها بعض الطواويس والأرانب والحمام، يقابلها بحيرة صناعية صغيرة، يسبح فيها الكثير البط، حيث ترى الأطفال أمام السياج الحديدي، يطعمونهم أنواعاً الذرة والخبز، مع إكمال سيرك، وصولًا إلى القناطر الضخمة، المرتبطة بالنواعير، والتي كانت قديماً تستعمل كقنوات للري.

في أيام المهرجانات، **كما الآن**، يتحول هذا المكان إلى مهرجان للزهور والصناعات اليدوية الحرفية، فتنتشر **"البراكيات"** الجميلة المزركشة، يبيعون فيها مختلف أنواع الزهور والنباتات، مما يخلق جوًا ساحرًا داخل جو ساحر آخر!

إنه مكان عجيب..تتفتح فيه الحواس لأقصى حد مع كل تلك الموسيقى الليلية الهادئة، وعربات البوشار والفول النابت، إنهم يقدمون لك **الرفاهية بأرخص الأثمان!**

كنت أتمشى بين الزهور، أصافح ألوانها بعيوني، وعبيرها بحاسة شمي، وتلك الكراسي الخشبية المطرزة، على جوانب المربعات الخضراء، التي تتسع لأكثر من شخص كنوع من الرومانسية!

وأيضاً لبعض المتسولين، الذين يقضون ساعات الليل نائمين، على تلك الكراسي، تحتضنهم الطبيعة مثل أبنائها.

درسٌ في التصوير!

أثناء سيري، كانت الأرض تتراقص تحت قدمي، من شدة صخب الموسيقى، رأيت أنور من بعيد، فوق ذلك الجمل الموضوع هناك لأخذ **جولة**

تذكارية، يمسك الكاميرا بيد، ممسكاً بزمام الجمل بيد أخرى، ويطلق ضحكاته، يلتقط الصور من الأعلى بكل الاتجاهات، وكأنّه مراسل في مهمة دولية، لم أعرف إن كان يصوّر للجريدة أم لنفسه فقط، اقتربت منه:

- هل انتهيت من ألعابك الصبيانية؟

قلتها، وأنا أراقب طريقة جلوسه المضحكة!

نزل من على الجمل بخفة مصطنعة، وهو يقول:

- اقترب! اقترب!

لنلتقط صورة جماعية مع هذا الجمل الرائع!

أعطى الكاميرا لسائق الجمل بعد أن أمطره بسلسلة من التعليمات الدقيقة، كأنه يلقّنه درسًا في التصوير الاحترافي!

كان **الحادي**، رجلًا حَمَويًا بامتياز، ملامحه تنطق بالحيرة والدهشة، فتح فمه وظل مفتوحًا وهو يستمع مندهشاً، كأن الزمن توقف عند دهشته تلك!

ليرد بتنهيدة طويلة، وبلهجته الأصيلة:

- ويناااك... لك شلون بتشتغل هي يا ولّلووو..

سرٌ صغير!

في طريقنا إلى **قهوة المأمورية**، كان أنور يحدثني عن امرأة عرفها في الماضي، وكان بينهما مشروع لتكوين أسرة، ولكن شاءت الظروف أن يفترقا، بسبب تعقيداتٍ عائلية لدى الطرفين، فانتهى المشروع نهائيًا، رغم ما خلّفه في نفسيهما من ألم، وحبّ سرّي ظل مستمرًا.. حتى بعد زواجها واستقلالها مع أسرتها الصغيرة !
وكعادة الأقدار، ما إن يهمّ الحب الحزين بالنوم، حتى توقظه الأقدار بسؤالٍ عن الإخلاص!

في طريقه إلى السوق، حيث صادف تلك المرأة ـ **مريم** ـ في محلٍ لبيع الملابس، وهو المكان الذي كان فيه أنور مع صاحب المحل **-صديقه-** يتبادلان الأحاديث المعتادة، دخلت مريم، ألقت التحية دون أن تنتبه لوجوده، كانت تسأل عن قطعة من الملابس المعروضة، لكن الغصّة باغتتها حين لمحته في الداخل، أرادت أن تخرج، ولكن قدميها، لا بل جسدها كله رفض مغادرة المكان، وخاصة بعد أن بادر أنور بالكلام، بنبرة حاول أن يخفي بها ارتباكه:

- أهلاً مريم... كيف حالك؟ إنها صدفة رائعة أن أراكِ هنا!

- أهلاً أنور، شلونك؟ كيف حالك؟
قالتها **مريم** بابتسامة خفيفة ممزوجة بالتوتر!

- الحمد لله بخير..
كان يحاول أن يبدو متماسكًا

- هل ما زلتَ تعمل في الفداء؟

- نعم... لا أستطيع ترك هذه الزاوية!
قالها بابتسامةٍ نصف ماكرة، ثم أضاف:
- إنها المكان الذي يمكنني الاطلاع فيه على كل شيء!

- آه، هذا صحيح... لم تتغيّر يا أنور!

- بالتأكيد..
ثم التفت فجأة إلى صديقه، الذي كان يرقب المشهد من بعيد، وقال له:
- إنها أختي... شوف شو بدها يا معلّم.

ابتسم صاحب المحل، وهو يقترب:
- إي، على عيني وراسي، تفضّلي أختي... المحل محلك.

- تسلم أخي ..
رفعت رأسها حائرة:
- كنت عم دور على ملابس للحمل...
ثم ، وكأنها تفطنت لأمر ما ، وقد تورّد خداها خجلاً**!**
أدرك أنور الموقف بسرعة، فقال بنبرة دافئة:
- ألف مبروك...
إن شاء الله عالخير والسلامة، يا رب.

- الله يبارك فيك... عقبالك.

- إن شاء الله، ثم تابع مبتسمًا:
- بس ما عم فكّر بالزواج حالياً... حابب أبقى حر شوي كمان!
تنهّدت مريم بخفة، وقالت بصوت خافت:
- ما في أحلى من تكوين أسرة...
لكن الغصة في حلقها خانتها، ولم تستطع إتمام الجملة، في تلك اللحظة، بدأ المحل يضج بالزوار

والمتفرّجين، لتكون الفرصة المثالية للانسحاب من حديثٍ بدا أنه يغرق في فوضى عاطفية، وجُملٍ تأبى الإنفلات!

- طيب، شكراً، يعطيك العافية... رح شوف شي تاني، لساتني عم أتفرّج.

أجابها صاحب المحل:

- ولا يهمك أختي، مية السلامة... المحل محلك!

أرادت أن تودّع أنور، لكنه كان قد انسحب للحظة إلى المكتب، وعاد مسرعًا، مدّ يده إلى حقيبتها بلطف، وهو يقول:

-هي كارت المحل... فيه رقمي كمان، إذا احتجتي شي!

ازداد ارتباكها، وأجابت بنبرة قصيرة:

- إن شاء الله... إن شاء الله.

كانت تختفي بين الزحام، بسرعة الضباب الذي يتلاشى عند أول لمحة من الشمس!

بلانك في المقهى!

أثناء الاستماع لقصة **أنور ومريم**، وصلنا إلى **المأمورية**، وقد أوشكت الشمس على الغروب، جلسنا إلى طاولة مطلة على النهر، حيث ارتدُّ علينا

رذاذ العاصي مع دوران الناعورة، كان المقهى شبه فارغ، ماعدا ذلك الشاب، الذي كان يمسح الطاولات، متجهًا إلى طاولتنا، يعيد ترتيبها، مردداً:

- أهلا وسهلا.. شو حابين تشربوا، ميلو متل العادة؟

أومأنا له بالموافقة.. فانصرف قائلاً:

-على عيني وراسي..

كانت عيناه البنيّتان تعكسان ضوء الشمس بقوة وهدوء، وكأنّ شيئًا واعدًا يلوح في محيّاه من أول نظرة، كأنّه زعيم، أوابن زعيم!

راقبته من بعيد، وكأنّ عيناي قد ارتبطتا مع عينيه بخيطٍ ذهبيٍ طويل، امتدّ عبر الطاولات البعيدة، لتخترق المطبخ الذي يطلّ على المقهى من نافذة كبيرة مفتوحة، يظهر من النافذة بعض الزوايا داخل المطبخ، بالإضافة إلى مرآة كبيرة على الحائط الداخلي المقابل لها، كان يمر أمام تلك المرآة وكأنه يستعرض، ينزل إلى الأرض قليلاً، ثم ينهض، ينظر في المرآة، يعدّل كنزته، ينظر إلى زنده وعضلاته، ثم ينزل إلى الأرض مرة أخرى، ويعود لاهثاً، فيعاود النظر!

بعد ذلك، يخرج من المطبخ، يلبّي بعض الطلبات، أو يستقبل الزبائن، ثم يعود إلى مرآته مرة أخرى!
في البداية، كنت أظن أنه يحضّر علب السكر، أوالشاي، أوالقهوة، أو يتفقد المخزن الصغير تحت النافذة، لكن المدة الزمنية التي يستغرقها لإحضار تلك الأشياء، كانت أطول، بالاضافة إلى أنفاسه التي كانت تتصاعد في كل مرة، ومع ازدياد فضولي، تسللتُ إلى هناك، متذرّعًا بحجة الحمام، انتظرت لحظة اختفائه تحت النافذة، ثم انسلت قدماي بسرعة إلى الداخل:

- مرحبًا... الحمام من هون؟

قلتُها وأنا أحاول تلطيف النبرة.

رفع رأسه، دون أن ينهض من جلسته الرياضية، قائلاً:

- يا هلا أستاذ، إي... على يسارك، بتنزل من الدرج. كان واضعًا أطراف أصابعه وقدميه على الأرض، في وضعية **تمرين البلانك**، يعدّ بصوت منخفض: واحد، اثنين، ثلاثة...

- ما شاء الله! رياضي رائع!

نهض بعدما أنهى العشرين:

-على راسي والله... لازم الواحد يحافظ على الفورما.

- أكيد، الله يقوّيك!
ساد صمت خفيف بعد جملته الأخيرة، صمتٌ بدا كأنّه إشارة غير مباشرة لإنهاء الحديث، لم أشأ إزعاجه أكثر، فتركته، واتجهت نحو الحمام !

ليش رجعت!

عدت الى أنور الذي كان على وشك البكاء...سألته متعجباً:
- خير ما الذي يحصل؟
لم يرد.. كررت عليه:
- أنور ... أنور!
كان غارقا في أفكاره، يده على هاتفه ينظر إليه تارة، وتارة أخرى يرمي بنظره إلى النهر ، في محاولة أخيرة، سألته:
- أنور ماذا يحصل معك؟
لم يستطع الكلام ، كل ما فعله أن رمى الهاتف على الطاولة لأنظر بنفسي!
كانت هناك بضع كلمات، لا.. إنها ليست كلمات، بل

رصاصات عشق مدوية، كان المرسل يقول:

" أنور ليش رجعت .. انا ما صدقت امتى نسيتك!
ليش رجعت، ما قادرة عيش من دونك، من الصبح وقلبي متل النار عليك، أنور مابعرف لما بشوفك قلبي بيوجعني!
يا ربي شو بدي اعمل.. ليش رجعت ! "

تلك الكلمات المحمومة، كفيلة بأن تقلب الجو الشاعري، إلى لحظات ضعف رهيبة، كأنها تثقل الهواء بيننا، وتثقل دموع أنور التي لم أقدر على إيقافها، ولم أقدر، أيضًا، على إيقاف تلك الناعورة التي تدور بثقلها، كما تدور أحزان أنور، وكأنها تهمس له:

"كل مرّ... سيمُر!"

لكن..هيهات على قلب العاشق المحموم، وتلك النار المستعرة في داخلهما:

لماذا رجعت؟

هل حقًا هذه كلمات بسيطة؟

إنها تعني: أين كنت؟

لماذا تركتني؟

لماذا غبت؟

كيف سأعيش باقي أيامي من دونك؟

ماذا سأفعل بكل تلك الصباحات التي لا تأتي بك؟
وكل تلك الأبواب التي أفتحها لأجدك... ولا أجدك!
وكل تلك الرسائل التي تصل إلى الجميع... ولا تصل إليك!
ماذا أفعل بكل هذا الرماد المتراكم في داخلي؟
لماذا رجعت؟
هل ستبقى... لأترك كل شيء وأرحل معك؟
هل ستبقى... كي لا أكون لغيرك؟
كنت قد وعدتني أن نلتقي عندما تبلغ الستين من عمرك، لأحصي عدد الهالات السوداء حول عينيك، ووعدتك أن ألقاك دون عكاز!
ثم غبت؟
والآن رجعت؟
هل بلغت الستين؟
لكن الهالات السوداء... لا أجدها على عيونك، إنها هنا، على عيوني!
كل تلك المعاني، كانت تتزاحم في رأسي، الذي ضاق شيئًا فشيئًا، متقلصًا بحجم دمعة، انحدرت بهدوء، على خد أنور!
ساد صمتٌ ثقيل، لم يكسره إلا عودة ذلك العامل، ومعه كأسين من "الميلو"، وضعهما وغادر إلى

طاولة أخرى، كانت عيناي تتأرجح بين دموع أنور، وذلك الشاب، بقبعته السوداء، وقد بدا أكثر نشاطًا!
حاولت كسر ذلك الصمت:
- ماذا ستفعل يا أنور؟ هي نفسها التي أخبرتني عنها قبل قليل؟
هزَّ رأسه موافقاً..
- أوه، مشكلة... ما الذي تفكر به؟
أضاف بنبرة حزينة:
- إنها حامل، ستلد بعد بضعة أشهر، أخشى أن تنتحر، أو تؤثر هذه المشكلة على صحتها النفسية، فيتأثر الجنين الذي في بطنها، سأكون الملام الوحيد في ذلك، حتى لو هربنا معًا... إلى أين؟
صوته كان مخنوقًا، كأن السؤال لم يكن موجهًا لي، بل لنفسه، للريح، للقدر:
– كيف سنعيش؟ وإلى متى؟ هل ستغفر لها عائلتها؟
لم أجب... فقط نظرت إليه:
– إذن؟
همسه كان كسكين يجرح صمت المقهى:
– لا شيء... لكني أرغب بشدة أن ألتقي معها!

عيناه ترتجفان، وكأنه يتوسل إذنًا لا يملكه أحد. ثم تمتم بصوت شبه خافت، وكأنه يعتذر لنفسه:
-أعلم أن هذا جنون.. لكنني لا أستطيع التوقف!

– ولماذا أعطيتها رقمك؟
قلت ذلك وأنا أضع فنجان القهوة على الطاولة برفق، وتابعت:
– هذه الخطوة قد تفتح أبوابًا لا تغلق، بيتها، زوجها، أهلها... كل هذا مهدد الآن.
تنهيدة منه، طويلة كأنها تعصر قلبه:
– لا أعلم يا فريد... أشعر أن قلبي سينفجر، ومشاعري تتفتت تحت وطأة تلك الرسالة!
اقتربت منه قليلًا، ثم قلت بنبرة منخفضة:
– لديك طريقان، لا ثالث لهما!
رفع نظره إليّ، ينتظرني لأكمل:
– ما هما؟

– إما أن تهربا معًا... إلى لبنان، ومن هناك تبدآن حياة جديدة، بشرط : أن تقطعا كل خيط يربطكما بالماضي، بالأهل، بكل شيء!

رمش بعينيه كأن نسمة باغتته:
– والطريق الآخر؟

– الطريق الآخر، يحتاج إلى أعصاب من حديد، وقلب أقسى من الحجر!
قاطعني فجأة، بشيء من اليأس:
– أعلم تمامًا ما هو... لكن قلبي لا يريده.
قلت بإصرار:
– يجب أن تفعله، أنور. حياة تلك المرأة على المحك. ستتألم قليلًا، ثم تعتاد. سيخدعها الروتين، تنساك، أو تدّعي ذلك على الأقل.
ردّ كطفل ضائع يبحث عن مخرج:
– فقط مرة واحدة... أريد أن أودعها.
هززت رأسي نافيًا، وبقوة:
– لا مرة ولا نصف مرة. افعلها الآن.

– أريد فقط أن أخبرها مباشرة... أن أنظر في عينيها.
صمتُّ لحظة، ثم همست كمن يجرح نفسه بالكلام:
– كفاك وهماً يا أنور... هذه "المرة" ستلد غيرها. سلسلة من "المرات الأخيرة" التي لا تنتهي.

غرس كفيه في شعره، وتمتم بانكسار:
– ماذا تريدني أن أفعل إذن؟

– بسيطة... امسح رقمها. امسح الرسالة. لا ترد، لا تكتب، لا تحنّ.
ضرب جبينه بكفه، وتأوه:
– يا لقسوتك، فريد...
أخفضتُ عيني، ثم قلتُ بابتسامة حزينة:
– أنا أيضاً أتألم، لكن كلماتي قاسية، لكن قلبي أرحم بكما من هذه النار.
تردد، ثم قال:
– سأفكر بالأمر.
أصررت:
– لا يحتاج الأمر إلى تفكير. هل تريدني أن أفعلها عنك؟
هزّ رأسه بسرعة:
– لا لا، انتظر... سأرسل لها كلمة واحدة فقط. وداع.

– لا تفعل... التجاهل أقسى من الكلمات، لكنه أصدق!

همس:

– هل يمكن أن نبقى أصدقاء؟

– صداقة؟ أنت وهي؟ مستحيل. الحب الكبير لا يتحول إلى صداقة، بل إلى رماد، إلى غيرة، إلى نار تأكل الأخضر واليابس... الحب لا يقبل إلا أن يكون ملكًا أو لا شيء!

– لكننا بحاجة لشيء أخف من الوداع... أخف الضررين، كما يقولون.

– نحن في مجتمع لا يعترف بـ"الصداقة" بين رجل وامرأة، إلا إن كانت خدعة. لن يرحمها أحد. ولن تسامح أنت نفسك!

خلال حديثي، كان يقلّب الهاتف بين أصابعه... نظراته غارقة في البعيد. فجأة، وكأنه اتخذ قراره، برق شيء في عينيه، فتح الهاتف، ضغط على الاسم، ثم على الحظر، ثم مسح الرسالة. بلا كلمة، بلا تردد. وضع الهاتف على الطاولة وقال:

– ما رأيك نلعب "الكون كان"؟

ابتسمت:

– هل أنت مستعد للخسارة؟

قال وهو ينهض، يستعيد شيئاً من روحه الساخرة:

– إذا كنت مستعدًا للخسارة... فاعلم أنني لم أعد أملك شيئًا أخسره!

ناديت الشاب الذي يدير المقهى، فأومأ برأسه قادمًا نحونا:

– تفضل، أستاذ.

قال أنور:

- نريد علبتين من ورق اللعب، ومعهما ورقة وقلم... ونريد شايًا أيضًا.

- تكرم عينك، أستاذ.

راح يجمع الكؤوس الفارغة عن الطاولة، واستدار ليعود بعد لحظات، حاملًا ما طلبناه، ثم نظر إلي نظرة لم أفهمها تمامًا، واستدار ليكمل عمله.

قال أنور (وهو يخلط الورق ويوزعه):

- ما بال هذا الشاب؟... هل تعرفه؟

-لا... لا أعرفه، ولكن تحدثنا قبل قليل عن الرياضة.

يرد أنور، وقد عادت نبرته الساخرة:

-أنا أعرفه، وأعرف شيئا آخر أيضاً!

- ماهو..أخبرني؟
أنور (ضاحكًا):
- أنا أعرف شيئا واحداً فقط، وهو خسارتك الدائمة أمامي!
نظرت إلى أوراقه المصفوفة على الطاولة:
- أوه، لقد خسرت جولة واحدة فقط... إنها البداية، من هم مثلي لا يخسرون، بل يقاومون حتى آخر نفس!
- سنرى من سيضحك أخيرًا إذًا!

هاربٌ من الحياة!

كان الليل قد خيّم تمامًا، أنهيتُ اللعبة بخسارة كبيرة أمام أنور، الذي ظلّ يضحك طوال الوقت، وكأنّ الشخص الذي كان قبل قليل يوشك على الانهيار، لم يكن هو، كنت سعيدًا بذلك، من خبرتي بأنور، أعلم أنه سيتجاوز الأمر سريعًا، إنه قوي المشاعر، نعم، لكنه أيضًا مثل إسفنجة تمتص الحياة كلها، وتُعصرها بكل شغف، لا شيء يُوقف تقدّمه. سيتابع حياته كعادته، يمتصّ مباهجها حتى النخاع!

لم أكن أملك قدرته الخارقة على تجاوز الأشياء، كان هناك دومًا أمر يقبع في قعر الفنجان، أظلّ أفكّر فيه بقية الأيام التالية، إلى أن يتلاشى، وبعد قتله تحرّيًا، وتفتيشًا، وبحثًا، وتجربة، أجسّ نبضه، لأتأكد أنه ما زال حيًّا في خزان الذاكرة!

في كل معركة بينهما - بين القلب والعقل - الرابح الوحيد هو الذي لم يخسر نفسه!

غادرنا المقهى باتجاه حديقة "أم الحسن"، قبل أن يودّع أحدنا الآخر، توغلنا في الحديقة ببطء، نُراقب زهورها النائمة بهدوء، لم يبقَ فيها إلا المناوبين على حراسة **"البراكيات"**.

مشينا باتجاه الباب الآخر، حيث ركنّا السيارتين، لألمح شخصًا، مُلقىً على كرسي خشبيّ قبالة النهر، من الطرف المقابل للمأمورية، لم يكن نائمًا تمامًا، ومن خلال ملابسه الخفيفة، المتسخة، استنتجت أنه ليس من الحراس، بحثتُ بعينيّ عن حذائه تحت الكرسي، لم أجده، توقفتُ لبرهة، قال أنور:

- ماذا بك يا فريد؟

سأل أنور..

- انتظر... هل رأيت ذلك الشخص النائم؟

- أين؟

- خلفنا تمامًا، على الكرسي الخشبي.
نظر إليه قليلًا، ثم قال:
- نعم، أراه الآن... ماذا به؟ هل تعرفه؟

- لا، لا... انظر إلى ملابسه.
كأنه هارب من السجن!
هل من الممكن أن يكون كذلك؟
ضحك أنور قليلًا:
-السجن؟ هل يجرؤ أحد أن يهرب في بلدنا من السجن؟ ثم يأتي إلى الحديقة؟

- لا أدري... إذًا ما هذه الملابس؟ وأين حذاؤه؟
رمقني ساخرًا:
-هل بحثت عن حذائه أيضًا؟

- نعم، نعم..
أجبته وأنا أبتسم بخفة، ثم اتجهت صوب ذلك النائم، مصدراً بعض الأصوات أثناء سيري، متوقعاً أن يستجيب بطريقة ما، لكن لم يتحرك أبداً!
- هل هو ميت؟

سألت نفسي بقلق، أثناء اقترابي منه، تحرّك قليلًا، يعدّل نومته بتعب، ثم رمقني بنظرة نصف نائمة، وتمتم:

- مين هاد؟... مين انت؟ وأكمل نومه كأن شيئًا لم يكن!

- هل أنت بخير؟

سألته، وأنا أحاول اكتشاف ما به، وقد وصلتُ فوق رأسه.

- إي إي... برد شوي!

هلّق شوي وبروح... بدكم تسكّروا الجَنينة؟

- إي، رح يسكروا... صار لازم تروح على البيت.

- بتعرف شو، خلص، خليني هون... ما بدي روح.

- عندك بيت؟ وين بيتك؟ قريب؟

- إي، إي... أكيد يازلمة !

- طيب، قوم... روح، تأخّر الوقت.

كان شابًا في مقتبل العمر، أسمر اللون، شاحب الوجه، يرتدي في يده اليمنى كفًا أسود مقطوع الأصابع، وبجانبه على الأرض، ثلاث علب من

الدخان الحمراء الطويلة، وعدة قدّاحات!
لم يُظهر الضوء الخافت الكثير من ملامحه، في سؤالي الأخير، كان قد نهض قليلًا وهو يتململ:
- كم الساعة؟

- إنها الثانية عشر ليلًا!

- أووف، والله تأخر الوقت... طيب خلص، روح، هلّق شوي وبروح أنا، بس صحصح.
ثم راح يبحث عن دخانه وقداحاته، أشرت له بهدوء:
- إنها هنا... على الأرض.
كان أنور يراقبني من بعيد، ثم اقترب قليلًا، بعد أن رأى الرجل قد استيقظ:
-هيا بنا، لقد تأخرنا!

- يلا.. التفتُّ إلى الشاب وسألته:
- هل تحتاج إلى توصيلة للبيت؟

- لا لا، شوية ورايح..

- طيب، يلا... تصبح على خير.
كان منشغلاً بسحب سيجارة من علبته، وضعها في

فمه، أمسك بالقداحة، انتظر قليلًا، ريثما ابتعدتُ، كان صوت قداحته يعلو أكثر، بتهكم قلت لأنور:

- أرأيت، ليس هارباً من السجن!

ردّ أنور، بسخرية:

- حقاً.. إنه هارب من الحياة إذن!

ثم أضاف:

- لعلّ عائلته قد طردته، أو ربما يمر ببعض الظروف السيئة التي أجبرته على البقاء هنا، لماذا تهتم لمثل هذه الأمور يا فريد؟

كمن ينفي عن نفسه تهمة:

- غريزة صحفيّ فضوليّ، لا أكثر!

خذني معك!

كنّا على وشك الخروج، عندما تعالت أصوات أقدامه الحافية خلفنا، ينادي:

- أستاذ.. ويناااك !

- أهلين... تفضل.

- معك سيارة؟

- إي، معي..

- معلش توصلني معك؟

- لوين بدك وصلك؟ وين ساكن؟

- خليني أطلع... وأنا بدلك عالطريق!

توجّست خيفة من إجابته، بتردد قلت له:

- أعتذر... لا أستطيع اليوم، عندي بعض الالتزامات، لكن ممكن أستأجر لك تكسي توصلك مطرح ما ساكن.

قال وهو ينظر حوله بتوتر:

- أيوا... طيب من وين التكسي؟

الدنيا آخر الليل، وأنا بخاف من التكاسي بالليل!

كادت ضحكة أن تخرج من فمي، لولا أنني تداركت الأمر وقلت:

- أنت بتخاف؟! كيف يعني؟ يازلمة أنت بتخوّف!

ردّ بهدوء، وبصوت فيه نبرة صادقة:

- إي والله، بخاف أطلع بالتكسي!

كان أنور يومئ لي من بعيد، يلوّح بيده وكأنه يقول:

"احذر... اتركه لشأنه"

استجبت لهمسات أنور، ولكن لم أستطع أن أترك الشاب دون مساعدة، أخرجت من جيبي بعض الليرات، دسستها في يده:

- دبّر حالك بهدول... الله ييسرلك يلا، تصبح على خير.

أطلت ابتسامة كبيرة من محيّاه بعد أن عدّ تلك الليرات في كفّه!

دخلتُ سيارتي، أدرتُها، انتظرتها قليلاً ليدفأ المحرك، عندما عاد ذلك الشاب مجددًا:

- أستاذ... أستاذ... فيني أطلب منك خدمة؟

-إي تفضل، بس بسرعة لأن تأخرت... وعندي دوام.

اقترب من نافذة السيارة أكثر، وقال:

- أنا والله حبيتك... يعني، مو:حبيتك، حبيتك! بس باين عليك محترم!

- طيب... قلي شو الخدمة؟

- بدي توصلني على البيت، أنا بدلك عالطريق أنت لوين طريقك؟

- طريقي على باب البلد.
قال برجاء، وبعينين تشعّان رجاءً طفوليًا:
- أنا قريب عليك، حبَّاب خدني بطريقك!
نظرتُ إليه، باحثًا عن أي سلاح، أو شيء يخبئه تحت ملابسه، لكن لم يكن هناك إلا **بنطال مهترئ، وكنزة بيضاء خفيفة ومتسخة، وقدمين حافيتين**، لا يبدو عليه أنه مؤذٍ، قلت له بهدوء:
- سأوصلك لكن بشرط: أن يكون المكان قريباً!

- قريب... قريب!
قالها بحماسة، وقفز بسرعة إلى الطرف الثاني من السيارة، محاولًا فتح الباب.

مسكة، وقفاز أسود مقطوع الأصابع!

فتحت له الباب، وما إن جلس بجانبي، حتى **ضربتني رائحة** لا أستطيع وصفها، سوى بأنها أقذر شي أشمه في حياتي، سألته، وأنا أمسك المقود:
- إمتى آخر مرة اتحمّمت؟
لم يُجب، كان منشغلًا، بالتأكد من جيوبه، صرخ فجأة:
- دقيقة، دقيقة!

نزل من السيارة بخفة، وبدأ يُفرغُ جيوبه من علب الدخان، القداحات، الليرات التي أعطيتها له، والكثير من القطع الورقية الصغيرة، مكتوب عليها ملاحظات وأرقام، ألقى على إحدة الأوراق نظرة خاطفة، ثم أعاد كل شيء إلى جيوبه بطريقة فوضوية، ودخل السيارة، قلت له بهدوء:

- كل شيء بخير؟

أومأ برأسه: نعم!

- نذهب؟

- إي، إي... خدني عالبيت!

- من وين نروح؟

- روح من طريق فندق أفاميا..

انطلقنا... دارت أغنية السراج تلقائيًا، ظننته سيحبها، خاصة بعدما رأيته سارحًا بأفكاره، سألته:

- بتحب هالأغنية؟

لم يرد..أعدت السؤال عليه..رفع عينيه وقال:

- فيني دخّن ؟

- لا، آسف... لما توصل، دخّن قد ما بدك!

- طيب..

سألته بلطافة:

- أي نوع من الأغاني بتحب؟

ظلّ شارداً، ثم طلب مني أن أخفض صوت الأغنية، استجبت لطلبه، وسألته:

- شو اسمك؟

أجاب بكلمة واحدة:

- زياد!

ساد صمت طويل، كنا نلتف حول القلعة، باتجاه باب النهر، ثم صعدنا نحو باب القبلي، قال فجأة:

- نزّلني هون.. هون !

أوقفت السيارة:

- تفضل يا زياد، تصبح على خير.

أجاب بابتسامة خجولة:

- يعطيك العافية... تصبح على خير!

تلك الابتسامة، أظهرت وسامته وحيرته بشكلٍ لافت، نظرت إلى أقدامه الحافية:

- بيتك قريب؟ بتحب أوصلك لباب البيت؟

- لا، لا... عادي!

عاد وفتح باب السيارة مجددًا، دخل بسرعة، وقال:

- دقيقة شوي.. ثم صمت، بدا كمن يرتب أفكاره، قبل أن يخبرني بها، كانت عيناي تفيض بالنعاس، استعجلته:

-زياد... فيك تحكي بسرعة؟ تأخرت، وعندي دوام!

قال وهو يُحدق بي بنظرة ثابتة:

- بدي اسألك سؤال... جاوبني بصراحة!

- تفضل..

قال فجأة وهو يحدّق في الفراغ:

-إنت بتعرف إنو كل الناس عندها "مسكة" حتى تقدر تنام؟

هدول الخطين... شايفهم؟ مشيراً بأصابعه إلى الهواء: **واحد أحمر، واحد أخضر..**

ما لازم حدا يلعب فيهم، لحتى الكل ينام مرتاح!

كنت أستمع، غير مستوعب تمامًا ما يقول، أخفيت اندهاشي، رغبة في أن يكمل قصته وأرحل بسلام، كان يتابع شرحه:

- يعني، إنت عندك مسكة، وأنا عندي مسكة، وأنا إذا بدي بحرّك المسكة تبعك، وما بخليك تنام، مظبوط ولا لأ؟

- إيه... ممكن!

- صح ولا لأ؟

- إيه، إيه..!

- طيب... إذا حدا لعب بهدول المسكات، الله بيحاسبه، صح؟

- أكيد..

- لازم الواحد ما يلعب فيهم، حتى يقدر ينام ويصحى عالشغل مرتاح!

- صح، طبعًا !

- طيب، وإذا حدا صار يحرّكهم يمين وشمال؟ الله بيحرقه بالنار؟

- أكيد.

صمت... وقد بدأ الحديث يأخذ منحىً أكثر جدية، نظر إلي نظرة من يبحث عن عدالة غائبة:

- طيب.. وينو الله!

ليش ما عم يحرقهم؟
شو ناطر؟!
تطايرت تلك الأسئلة كرصاصات، أضاءت في عيوني ألوانًا من البهجة، والتعجب، والاستغراب، والاستفهام، ما الذي يقوله هذا الشاب؟ أيمزح معي؟ هل هو بكامل قواه العقلية؟ هل تعاطى شيئًا قبل هذا الحوار الهلامي!
صرخت في داخلي، كمن يطلب المعونة المستحيلة:
أين أنت يا أنور !!
استمر حديثه لأكثر من نصف ساعة، أعاد حديثه خلالها أربع مرّات!
واختصاراً لتلك المعركة، قلت له، وأنا بكامل حكمتي الهزلية:
- اسمع، أنا عندي الحل، يمكن يكون الله مشغول شوي، أو يمكن مأجّل حرقهم لبعدين، بس أنا رح أعطيك وصفة سحرية، بتخليك تنام دغري!
رفع رأسه فجأة، عيناه تتوهج بأمل طفولي:
- والله؟ يعني رح تساعدني؟
قلت له، بلهجة الواثق:
- قبل النوم، لازم تستحم، وتروح عالتخت فورًا، وتقرأ آية الكرسي... سبع مرات!

فتح عينيه بدهشة طفولية:
- إيوا... آية الكرسي سبع مرات؟

- نعم، آية سحرية، بتخليك ترتاح وتنام بسرعة!
كانت ملامحه تشرق شيئًا فشيئًا، وكأني وضعت إصبعي على الجرح، وكأنه عثر على كنز، رفع رأسه:
- يعني الله مشغول، بعدين بعاقبهم، صح؟

- أكيد... بس مين "هدول"؟
شهق:
- أمي، ما عم تخليني نام، كل شوي بتطالع أصوات بالمطبخ، وبتعيّط، ما عم تخليني نام!
ثم أكمل بصوت فيه رجفة صدق مرعب:
- كل شوي... بتشد المسكة، قلتلها مليون مرة، ما تلعبي بالمسكة، هاي المسكة بدها ناس بتفهم، بتعرف كيف تشدها، وكيف بترخيها.. لحتى تقدر الناس تنام وترتاح!
مبتلعًا الصدمة.. هل كان يتحدث... عن أمه؟
كل هذه المعاناة بسببها؟
تبخّر النعاس من عيوني كليًا، قلت له، بتردد

ممزوج بالقلق:
- بيتكم قريب؟

- إي... هون، خطوتين!

- طيب... رح أمشي معك عالبيت، ورح أدخل أحكي مع أمك، رح قلها، ما بقى تلعب بالمسكة!
تجمّد، كأن الحياة عادت إلى عروقه:
- قول والله؟ رح تجي معي !؟

- والله رح أجي معك، ورح قول لأمك: خلي زياد ينام، لأنو ماعم يقدر ينام من المسكة!

- يعني أكيد رح تقلها هيك؟!

- إي..

- عيد، عيد، شو بدك تقلها؟
ابتسمتُ، مجيبًا له، أثناء فتحي لباب السيارة:
- رح قول: زياد زلمة منيح، وعندو شغل، بدّو يرتاح، وينام، ما عاد تلعبي بالمسكة، حتى يقدر ينام ويروح الصبح ع الشغل!
ضحك، ثم طلب مني أن أعيد عليه ما سأقوله، مع

بعض الاضافات:

- زياد... بده يشتغل، ويشوف حياته، ويتزوّج، خليه ينام، يرتاح، وما عاد تلعب بالمسكة، خلي الناس ترتاح!

بعد أن تأكد من صحة الجملة وكمالها التام، أضاف ابتسامة صغيرة، وأشار إليّ بأن أنتظر، مشعلًا سيجارة أخيرة، قبل أن يدخل، سألته:

- ما قصة هذا القفاز الأسود، وقد اعتدل الجو؟

أجاب ببساطة:

- هيك والله، عادي!

- يعني ما فيها شي ايدك؟

- لا... أنا بحب ألبسهم.

لم أعد عليه السؤال، أردتُ أن يُنهي سيجارته بسرعة، كان ما يشغل فكري: كيف سأعود إلى البيت؟ تأخرت عن موعد نومي، غدًا يوم حافل، وأنا لست بكامل طاقتي!

بعدين.. بعدين!

داخل غرفة ممتلئة بالدخان، استطعت بصعوبة أن ألمح امرأة في منتصف الستين، ترتدي نصف حجاب أبيض، تكاد تكون متمددة على كنبة حمراء، في يدها نبريج الأركيلة، وأمامها تلفاز صغير يعرض مسلسلًا: تركيًا؟ هنديًا؟ لم أكن متأكدًا!
صرختْ، بعد أن سمعت صوت فتح الباب:
- مين؟
أجابها، بنبرة مؤكدة:
- زياد... معي رفيقي!

- مين رفيقك يا زياد؟

- رفيقي، الأستاذ..
سلّمتُ عليها، تفحصتني بشيء من التوجس، من رأسي حتى قدمي، وكل الحق معها، رجل غريب يدخل بيتها بعد منتصف الليل، شعرت بالانزعاج من الموقف، حاولت التوضيح:
- بعتذر، اجيت بهاد الوقت، كان زياد نايم بالحديقة، وعرضت عليه وصله بطريقي!
مشيرة إلى الكنبة المقابلة لها:
- لا ولا يهمك، أهلًا وسهلًا... تفضل، استريح!

- لا، أعتذر... لازم روح، عندي دوام بكير!
أجاب زياد من المطبخ:
- قعود، قعود أستاذ، يلا شوي وراجعلَك!
شعرتُ أنه أمه معتادة على رؤيته بهذا المظهر!
فأومأتُ لها، ما الذي يحصل؟
لم تستجب، كانت ترهف سمعها إلى صوت فتح البراد وخشخشات الأكياس، صرختْ:
- يا زياد، ما تاكل الحلو، هاد لأختك، خلّته عندي لأن برادها عاطل، وهاد الكيك لبنتها، عيد ميلادها بكرا، سمعتني؟!

-إي، سمعتِك، سمعتِك!
ثم أضاف، بصوت نصف غاضب، نصف منهك:
- ما في شي للأكل!

- لا والله، ما عارفة إنك رح ترجع اليوم، وين كنت؟ صرلك خمسة أيام!
ردّ عليها بصوت خافت، وكأنه لا يريدني أن أعرف:
- بعدين، بعدين..
حاولتُ أن أدخل في صلب الموضوع الذي جلست

من أجله، ناديته:
-زياد... زياد!

- إي، أستاذ... بدك تروح؟

- إي والله، بكرا عندي شغل.
سألتني أمه:
- وين بتشتغل حضرتك؟

- أنا أعمل في صحيفة الفداء، في قسم التحرير.

- أهلين وسهلين!
بتعرف فلان؟ كمان بيشتغل هونيك.

- إي، أكيد... كل الموظفين بعرفهم.

- مية السلامة!
كان زياد قد دخل إلى الحمام، بعد أن اطمأن لعدم مغادرتي، بادرتُ أمّه بالسؤال، بنبرة اختلط فيها الحرج بالحزن:
- ماذا به؟
قالت بصوت خافت:
- والله يا ابني... زياد غصّة بقلبي!

- طيب... أخدتوه على شي طبيب؟ أو...؟
قاطعتني، وعيناها تدمعان:
- والله ما خلّيت مكان ما أخدته عليه، ما استفدت أبداً، بالعكس حالته عن تصير أضرب، حيشاك!

- طيب... شو قالولك الدكاترة؟
همست، وكأن الكلمة تخنقها:
- فصام !
تداركتُ تلك الرعشة التي أدركتني، وسألتها:
- فصام، عم يلتزم بأدويته؟

- كان ياخد، بس زتهم كلهم بالزبالة!

- ليش؟

- واحد من رفقاته، قاله: هاي الأدوية بتأثر على الدماغ، وبتخليك تصير مجنون، وقاله: عيش حياتك، وانسى، لا تفكر بالمرض وبتصير سعيد وما فيك شي!
أصدقاء السوء، حيشاك!

-لا حول ولا قوة إلا بالله، متى توقف عن الدواء؟

- من حوالي شهر، تقريبًا، والله يا ابني، عجزت معاه، ما خليت شي ما عملتله ياه، بس ما في فايدة!

ثم تابعت، وصوتها يرتجف:

- قبل خمس أيام، حجزت له سرير في المشفى حتى يتعالج، بس عقله متل التيس! ما رضي يروح، استعنت بأخوه، و شاب من الجيران، حتى يربطوه، وياخدوه بسيارة المشفى!

بالطريق...عطوه مهدئات، ضربوه ابرة أو ابرتين يمكن، ولما وصل على المشفى كمان ضربوه أبرة، هي بتنيم فيل!

كانت تخبرني بهذه القصة بصوت خافت جدًا، وفي كل مرة تقطع حديثها وتنظر نحوالمطبخ، تنصت إلى خطواته وتسألني بعينيها:

- اجى ؟!

من مكاني، أنظر داخل المطبخ لأتأكد:

- لا، إنه بعيد... يأكل على الطاولة!

فتتابع قصته:

- بنفس اليوم، اجاني اتصال من رقم غريب، رديت، كانت مسؤولة من المشفى، قالت لي: "زياد هرب!"

-هرب؟!
ما رجع عالبيت؟

- لا والله ما رجع من وقتها لهلئ!

- أوف، ما اتصل فيكم أبدًا، ما دورتوا عليه؟

- دورنا عليه، بس ما لقيناه أبداً، ما بعرف وين كان كل هي الفترة، كنت دائماً عم قول بيني وبين حالي: بكرا بيرجع!
وبنفس الوقت... كنت عم قول ان شالله ما يرجع!
آخ يا أستاذ، زياد كرَّهني عيشتي، أنا أمه، وبيقولولك قلب الأم، بس والله صرت أتمنى أنه يموت حتى يرتاح من اللي هو فيه، ويريّح!
كلماتها، دموعها، معاناتها!
هل يمكن أن تصل الأم لهذه الدرجة من الأمنيات!
تجاهلت كلماتها الأخيرة وقلت لها بلطف:
- لعله خير، بالمناسبة، أصرَّ زياد أن أقول لك بعض الكلمات، سأقولها بحضوره كما طلب مني، وسأغادر بعدها فورًا!
في تمام الساعة الواحدة والربع، ناديته، فأجاب:
- إي، أستاذ؟ قلتلها اللي وصيتك عليه؟

- لا، عم استناك لتكون موجود.

- إي، يلا جيتك بس غسِّل!

التفتُّ إلى الأم وقلت:

- حجّة، زياد يطلب منك إنك تخففي عليه شوي، هو بس بدو ينام منيح، مشان يروح على شغله، ويكون مرتاح!

قاطعني:

- قوللها... ما عاد تلعب بالمسكة!

نظرتْ إليه أمه، وقد تطاير الشرر من عينيها:

- رجعنا للمسكة؟

أي مسكة يا زياد؟

هاد حكي مجانين... شو رجّعك للمسكة؟

بنبرة حادة:

- أي، أكيد في مسكة، وإنتي عم تحركيها يمين وشمال، ماعم تخليني نام مرتاح!

كان الحديث بينهما يزداد توترًا، حتى أنهم نسوا وجودي تماماً، حاولت تهدئة الموقف:

- حسناً... المهم، يا زياد، خلص، أمك اليوم رح تخليك تنام، وإنت اعمل متل ما قلتلك، وإن شاء الله رح تقدر تنام وتفيق مرتاح!

أجاب بنبرة أخف، وكأنه يحاول أن يتذكر:
- ليش شو قلتلي؟
أي، قصدك اتحمم، واقرا آية الكرسي سبع مرات؟

- بالضبط..!

- إي، ماشي...
نهضت، قائلاً:
- يلا، أنا صار لازم امشي، أكرر اعتذاري يا حجة.
تصبحين على خير!

- لا، ولا يهمك ابني، إنت ما تواخذنا!

- تصبح على خير، يا زياد، وأحلام سعيدة!

- أهلين، أستاذ... بوصلك على الطريق؟

- لا، لا ما في داعي!
لا تنسى... اعمل متل ما قلتلك.

- ماشي.. الله معك استاذ!
دخلتُ سيارتي، وسحائب الأفكار تزخّ في رأسي كمطرٍ محمَّلٍ بالضباب، ما الذي حصل؟ ما هذه

"المسكة" التي يتحدث عنها؟ ثم أمه... يا الله على قلب الأم، كيف تحتمل كل هذا الألم؟ ترى فلذة كبدها يتحطم أمام عينيها، ولا تستطيع أن تحرك ساكنًا!
بل كيف وصلت إلى تلك المرحلة من اللامبالاة؟
يهرب من المشفى، ويغيب خمسة أيام، لا تدري أين يكون، وعند عودته، تستقبله وكأنه قد غاب خمس دقائق!
أهذا ما يسمّونه بالموت الرحيم؟ حين تنقطع أسباب الشفاء، فتصبح الأمنية الوحيدة هي... الخلاص؟
يرتاح، ويريّح!
كلماتها تحمل مزيجًا مستحيلًا من الحب والقهر والتعب... تتحدث عن وجعه بحذر شديد، كأنها تخاف أن يسمعها، أن يلومها بعد أن أرحل. هل كانت تخاف منه؟!
أين إخوته؟ هل أبوه على قيد الحياة؟ بالتأكيد سيكون رأيهم أقسى وأشد إيلاماً من أمهم، أجبروه على دخول مشفى الأمراض العقلية والنفسية.. بالتعاون مع أمهم، ثم تابعوا حياتهم وكأن شيئا لم يكن!
أين أبوه؟ لم أره، لم أسمع صوته، لم ألحظ ظله في البيت، لعلّه نائم، كبار السن ينامون باكرًا، إن كانت أمه في الستين، فلا بد أنه في السبعين، وما الذي

يمكن لرجل في السبعين من عمره أن يفعله مع فصام ابنه؟!
مئات الأسئلة كانت تحوم في رأسي، كأسراب من العصافير المتوحشة، لا تترك جوابًا إلا وتنهشه!
الساعة قد قاربت الثانية والنصف بعد منتصف الليل، دخلت البيت. لم أشأ أن أشعل الأضواء. اكتفيت بمساحة ضئيلة على طرف فراشي، وقنديل عقلي الذي بدأ يخفت شيئًا فشيئًا، حتى انطفأ!
ليوقظني بعد لحظات – أو هكذا ظننت – صوت المنبّه!

ظروف!

الساعة السابعة وخمسون دقيقة، في أقل من ربع ساعة كنت خارج المنزل، أتمشّى نحو المكتب، حيث ينتظرني أنور كعادته، واقفًا قرب النافذة، ورائحة قهوته تملأ المكان كتحية صامتة!
- صباح الخير أيها الكسول!

- وصباح الخير لك، أيها النشيط... كيف حالك؟
كنت أنفض بيدي بعض الأوراق عن مكتبي، أرتب ما تبقّى من آثار اليوم السابق: قصاصات، جرائد،

ملاحظات، وبعض الفوضى التي تبدو وكأنها لا تريد المغادرة:

- يبدو أنك لم تنم جيدًا... عيونك منتفخة!
هل سهرت على أفلامك الوثائقية؟

- أفلامي الوثائقية؟
لا لا... بل أكثر من ذلك!

- حقًا؟ هل...؟

وقبل أن يشرع في خوض تخميناته النسائية المعتادة، قاطعته:

- أتذكر الشاب الذي رأيناه البارحة في الحديقة؟

- أتذكره، ذلك الهارب من السجن؟

- أوصلته إلى بيته، لم يكن هارباً من السجن..
بل من المشفى!

- ماذا؟!
أنت مجنون يا فريد!

- إنه من عائلة محترمة... لكنه مسكين يمر بظروف صعبة جدًا!

- ظروف صعبة، هذه الظروف جعلتكَ تنام متأخراً؟ هل شممت شيئاً من ظروفه الصعبة؟ هل ناولك سيجارة تنسيك الهموم!

- لا تكن سيّء الظن يا أنور، في الدنيا الكثير من المحن التي تكسر أقوى النفوس. بعض الناس ينزلق نحو المخدرات، وبعضهم يظل متماسكاً، مع ما تخلّفه تلك الظروف الضاغطة من هشاشة نفسية، وما تحمله من اكتئاب وأمراض أخرى!

- وما دخلك أنت.. أين عائلته من كل هذا؟

- هذا السؤال بالتحديد، ما جعلني لا أنام جيدًا الليلة الماضية.. أين عائلته؟!

- إذًا، كما توقعت... انحرف، فتركوه!
لأننا في هذا البلد نخجل من المدمن، أكثر من خجلنا بتركه بلا علاج، وصمة عار يجب أن تُمحى، لا أن تُعالَج.

- ما سمعته من أمه كان أمرًا مختلفًا!

- أمه؟!
لا تقل لي أنك التقيت بأمه في منتصف الليل!

- بلى، أرغمني إلحاح زياد العاطفي أن أنزل معه، وأقول لها أن تتركه ينام!
ينفجر بالضحك ساخرًا:
- يا إلهي... يا لك من أحمق كبير!
ماذا لو كانت عصابة تنتظرك هناك؟
ألا تخاف على نفسك؟!

- كنت خائفًا، لكني أثق بقلبي، وبقدرته على قراءة الناس، في النهاية... لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا!

- تزداد حماقة بكلامك هذا!
وماذا عن: اعقل وتوكل؟

- كما أخبرتك: أثق بقلبي، وعلى كل حال، لم يحصل شيء مما تخشاه، ها أنا ذا أمامك، حيّ أرزق، أحتسي القهوة معك.

- ما شاء الله! قطّ بسبعة أرواح!

- نعم، ويبدو أن "زياد" من هذا النوع أيضاً!

- زياد..؟ ذلك الشاب؟
هل أصبح صديقك الآن؟

-إنه من النوع الذي تلقّى ضغوط الحياة ولم يستسلم، قاومها، فكسَرته. إنه لا يحتاج علاجًا بقدر ما يحتاج حبًا، وأمانًا، وثقة... لينهض من جديد!

- حقاً..إذن ماذا ستفعل أيها الحنون؟

- ما توصلتُ إليه، أن أمه وإخوته لا يعرفون كيفية التعامل معه. الجهل في مثل هذه الحالات قاتل!
في بلادنا، أول ما يخطر ببالهم شيخ أو دجّال... أو حتى الطبيب النفسي الذي يعالج تلك الحالات بالادمان على الأدوية النفسية!
إنه لا يحتاج إلى الدواء، بقدر حاجته إلى الأمان!
كانت كلماتي تخرج كما لو أنها تنبع من مكان أعمق مني، من منطقة لم أزرها سابقًا، وكأنني في اللاوعي قد بدأت أتبنى زياد دون أن أقرّر ذلك

فعلًا، باغتني أنور، الذي يعرفني جيدًا ويقرأني ككتابٍ مفتوح:

- وكالعادة، تريد أن تتبناه، وتمنحه الأمان المفقود؟ فريد، هل جننت؟!
هذا ليس كلبًا تائهًا في الشارع، إنه إنسان يحتاج رعاية خاصة، رعاية طبية، مستمرة!
لا أحد يمنح هذا الأمان مثل أهله!

- نعم، الأمر لا يعنيني، ولكنها عادتي في الغوص في التفاصيل فقط، على العموم هذا ما حصل معي!

- اشرب قهوتك، يا رجل، قبل أن أُجنّ أنا من تفاصيلك.

دودة الكتب!

ضحكتُ، تناولت رشفة من فنجاني.
اقتربت الساعة من نهاية الدوام، فنهض أنور قائلاً:

- أريد أن أذهب إلى السوق، لأشتري بعض الملابس الرياضية، لقد قررت أن أسجل في نادي كمال أجسام، ما رأيك؟ هل تحب أن تشترك معي، أو تريد أن تبقى مع زياد؟

تجاهلت نبرته الساخرة، مستدركاً:
- هذا رائع إنه أفضل خيار تأخذه لكي تنسى!
صحيح، تذكرت.. هل عاودت الاتصال بك، مريم؟
خفض عينيه قليلًا، وقال بنبرة يشوبها بعض الحزن:
- إلى الآن، لا... لكنني أفكر بها كثيرًا، ولكن لا يوجد أمامي إلا الخيار الأصح، أن أدعها تعيش حياتها، ستحزن بعض الوقت ولكنها ستعتاد .. كان خطأ كبيراً أن أعطيها رقمي وأن أسترسل معها بالكلام!
ربتُّ على كتفه مبتسمًا:
- لا بأس يا صديقي...
الآن، أنت على الطريق الصحيح. هذا ما يهم!
سأذهب معك، وفي الطريق سأفكر في التسجيل في النادي، بشرط أن تعزمني على ابريق كوكتيل من عند أبو ربيع!
رد ضاحكاً:
- لك ذلك.. دعنا نذهب مشياً إلى السوق، أريد أن يعتاد جسدي على التمرين!

- يبدو أنك متحمس جدا للنسيان!

- بالتأكيد!

كانت خطواتنا تتناغم مع حديثنا العابر، حتى مررنا بمكتبة صغيرة على زاوية الشارع.

توقفت، أتأمل كتبها المصفوفة بعناية:

- يبدو أنني سأتمرّن هنا أولًا!

ضحك أنور، وأجاب بنبرة ساخرة:

- دودة الكتب التي لا تشبع أبدًا، هل أنهيت الكتب التي عندك أصلًا؟

كنت أتصفح بعينيّ الرفوف الزجاجية، لا أبحث عن شيء محدد، لكنّ عيني وقعت على غلاف لم أره من قبل، أو ربما رأيته، لكنّه لم يكن يعني لي شيئًا آنذاك، تسبقني خطواتي إلى الداخل، قلت لأنور:

- دقيقة.. لن أتأخر!

عندما رجعت كانت الفرحة مرسومة على وجهي، وكأني قد عثرت على خريطة كنز!

- ها..هل حصلت على ما تريد؟

- نعم، لقد حصلت على أكثر مما أريد، انظر!

أخرجت الكتاب من الكيس، أمام أعين أنور الذي كان مصدوماً بعد أن قرأ عنوانه بالخط العريض:

"الفصام أعراضه وتشخيصه وعلاجه"

٥

باب الغرق

متّة.. وزبيب!

انطلاقًا من ساحة شمدين، وسط الازدحامات الخانقة في شوارع دمشق، وخصوصًا في مثل هذا الوقت من بعد الظهيرة، كانت تصطف السيارات، بانتظار إشارة المرور، على إحدى كراسي السرفيس في الركن الأخير، كان هناك شاب ينظر إلى المارّة بهدوء، عيناه تلمعان على تلك الإشارة، ريثما تتحول إلى اللون الأخضر، حين باغت السائق، بصوتٍ أجش:

- يلا روح، فتحت!

نظر السائق من المرآة إلى مصدر الصوت، متوقعًا أن يرى رجلًا ضخمًا، سمينًا، فتفاجئ بذلك الشاب الأشقر، الذي تظهر على محياه علامات الجمال! يعود بعينيه إلى المقود، وناقل السرعة، ليكمل سيره باتجاه **ركن الدين و حي المهاجرين!**

نزل الشاب، قريباً من **مخابز ابن العميد**، ليسلك طريقًا مستقيمًا، باتجاه إحدى الفروع التي تصعد به إلى الجبل، تلك الأزقة الضيقة، التي لا تتسع إلا **لسيارة السوزوكي** المضيّ قُدمًا...

لم يكن يستصعب التعلق بإحدى السيارات، لكن

منعه الحذر.. متابعًا صعوده ماشياً، يمينًا، ثم يسارًا، ثم إلى الأمام، يحفظ طريقه عن ظهر قلب، وهذا أمرٌ طبيعي، على من اعتاد المجيء في كل أسبوع، مرة أو مرتين!

أخيرًا، يصل إلى نافذةٍ صغيرة، منخفضة العلو، ومطلة على الطريق الضيّق، بضع نقرات، فيأتيه الجواب بصوت مبحوح:

- مين هاد؟

- أبو رأفت..!

- إي، يلا..

يخرج الرجل يده من الشباك، مشيرًا إليه بأن يبتعد قليلًا، ويقول:

- شو بدك اليوم؟

- شو في عندك؟ عندك متّة؟

- بس زبيب!

- طيّب، عطيني بألفين، إمتى بتوصلك المتّة؟

- ما بعرف، خليك عم تمر، بركي هاليومين!
بخفةٍ، يدسّ الزبيب في جيبه، ليعود أدراجه من طريقٍ مختلف، وتلك هي عادة كل من يمرّ، ليشتري **"الزبيب"** أو **"المتّة"** !
أما **"أبو رأفت"**، فهي كلمة السر المتعارف عليها، خوفاً من الرقابة، وكبسات أمن الدولة!
ولا أدري إن كان لأمن الدولة، كلمة سرّ خاصة بهم **أيضًا!**

شعور زائف!

يمضي مسرعًا، إلى أقرب مكانٍ، يستطيع تناول ما اشتراه، دون أن يلحظه أحد، في تلك الحديقة الصغيرة، التي أنهى فيها صاروخه الصغير، يدويّ الصنع، يترنح منتشيًا، ولا تلبث تلك النشوة أن تنطفئ سريعًا، يناجي نفسه: **لك وين المتة، هي ما بتعمل شي!**
يتمدد على العشب الطري، حيث يزهر الربيع بكل ألوانه، تمامًا كازدهار الضباب الملون في خيالاته!
أفكار متسارعة، متضاربة، وزمن بطيء، بطيء!
يتلوى جسده، ينتفض، خفيفًا كريشة، يطيرها النسيم

عاليًا نحو السماء، ومن ثم يهوي بها في قعر الأرض، فينترنح جسده بشدة، إثر تلك السقطة المدوية، يستكين الدوار شيئًا فشيئًا، مع غياب قرص الشمس، فينهض ببطء، يوازن نفسه قليلًا، يعدّل مشيته، ينظر إلى أقدامه تارة، وإلى السماء تارة أخرى، شامخ الرأس، واثق المُحيَّا، يرسم على وجهه ملامح الغضب، كي لا يضطره أحد إلى التوقّف، لسؤاله عن الساعة، مثلًا!

على مثل تلك الحال، يعود إلى غرفته الصغيرة، ليأكل أي شيء يجده في براده شبه الفارغ، يلفُّ مارتديلا مع اللبن، ينهض من جديد، يكمل سهرته مع خياله الذي تشبَّع لأقصى درجة من الصور المركبة، وغير المركبة!

يخرج من المنزل، يناديه أحد الجيران:

- خالد، كيف حالك؟

- أهلين، على راسي.

- خالد، قبل شوي إجا صاحب البيت عم يطلب الأجرة، وبيقلك إذا ما دفعت قبل نهاية الأسبوع لازم تفضي البيت!

- إي وشو يعني؟ ما بيقدر يصبر لآخر الشهر؟

- والله ما بعرف يا خالد، الأفضل تمر عليه وتحكيه.

- ماشي، هلّأ بشوفه!
قبل أن يودّعه تماماً، كانت خطواته تسابق الريح إلى ذلك المؤجّر، كيف يطلب منه أجرة المنزل؟!
ألا يعلم من هو؟
خالد أبو الليل... زعيم الحي، الأصلي!

ما تاكل!

هذا المسكين، الذي وجد نفسه أمام المكتب العقاري، يجتمع به كبار الحي، فأشار له أحد الجالسين:
- خالد.. تعال، تعال اتعشّى معنا.

- يلا، جيتك معلّم!

- جيب معك كرسي، وتعال لجنبي!
خلال ثانيتين، انتصب الكرسي حيث أشار المعلم، الذي بدأ يناوله قطع اللحم والدجاج المشوي، قائلاً:

- كول عمي، كول، إنت مغترب عن بلدك، وأي شي تحتاج نحنا معك!

- على راسي معلم، والله إنتو ما مقصرين معي بنوب!

متقززاً، وبلهجة ساخرة قال المعلم:

- لك عمي خالد، شو ما عم تجي المي عندك؟

مستدركاً، بذكاء:

- مبلى، عم تجي، بس مرات بكون مستعجل، وما إلي خِلِئ أتحمّم!

- ما بيصير عمي مابيصير، ريحتك ما حلوة بنوب!

قال الآخر، مشاركًا برأيه:

- وين كاين حتى ريحتك هيك؟

عم تشوي ولا عم تشعل حريقة بشي مكان؟

يضحك بتقطّع، قبل أن تبادره غصّة خفيفة:

- لا عمي، شو حريقة ما حريقة..!

بس يمكن، مريت من جنب شي محل عم يشوي، وقفت جنبه شوي، وعلقت الريحة بتيابي!

-إيواه...هلئ فهمت عليك!

يتأوّه الذي يقابله بابتسامة ماكرة:

- ما ضيّقك شي صارو... قصدي سندويشة؟

- ضيّقني والله، بس أنا ما رضيت، شميت ريحة الأكل عندكم، قلت لحالي بجي بتعشّى معاكم، أوجب!

- وشلون عرفت إنو رح نعزمك عالعشا؟
لا يكون عندك حمامة عم تنقل أخبارنا؟!

يضحك بفم مليء:

- لاه يا معلّم!

- والله صاير بتخوّف يا أبو الليل!

- نحنا من بعدك معلّمنا..
دايمة إن شاء الله، ألف صحة، رح ساويلكم أحلى كاسة شاي..

- ألف صحة عمي خالد، ما تكمّل أكل!

- والله شبعت..

- ألف صحة وعافية... هاي الإبريق، وهاي الكاسات، والسكر، والشاي!

يشير إلى أحد أركان مكتبه الغارق بالأوراق.

كان المعلم الذي دعاه قد شبع أيضاً، فاتجه نحو خالد وهمس بأذنه:

- جبتلي شي معك؟

يشير له بالإيجاب.. فيكمل همسه:

- لاقيني عالباب!

أبضاي!

ابتعدا إلى حافة الرصيف المواجه للمكتب، قال المعلم باستغراب، بعد أن ناوله يحيى حصته:

- شو؟ بس هدول؟ ما لقيت متة؟

- لا والله، ما في معلّم.. قال كم يوم وبتوصل.

- يفضح عرضها المتة... غير الشكل!

أراد أن يخبره: **"هديك بتعبي الراس على المظبوط"**، عندما رنّ هاتف خالد فأخرجه من جيبه، وأشار للمعلم بإصبعه هامسًا:

.....

- وعليكم السلام، أهلين أمي!

....

- شلونكم؟ إن شاء الله بخير... كيفو البابا؟

....

- إي، الحمد لله، ماشي الحال!

....

- إي والله، رح تبلّش امتحانات نهاية السنة عن قريب، وعم ادرس ليل نهار حتى لحِّق، المواد دسمة هاد الفصل.

....

- لا والله، طلعت شوي حتى آكل سندويشة شاورما، وراجع كمّل.

....

- ادعيلنا... الله يخلّصني من هالامتحان على خير.

....

- والله ما بعرف، احتمال انزل الخميس الجاية، لنشوف.

....

- إي، رح جيب كل الغسيلات معي والعلب..

....

-إي، إي والله، ما رح أنساهم، شو رح تطبخيلي فيهم؟

....

- الله يسلم هالإيدين، كل شي منك طيب، الله يخليلنا ياكي!

....

- أي، مو قلتلك رحت لعندو على الجريدة، ووعدني انو رح يدبرلي واسطة!

.....

- أمين، ادعيلنا وسلمي عالجميع.

...

- سلام، سلام، الله معك!

عندما وضع الهاتف في جيبه، كان المعلم يرمقه من بعيد، وفي فمه ابتسامة شفقة:

- لساتك عم تكذب على أهلك؟

- شو بدنا نعمل، يا معلّمي؟
والله حابب كمل، بس ما عم يكون في وقت للدراسة، هالأيام الشهادة ما بتطعمي خبز!

- بس هدول أهلك عم يصرفوا عليك وبعتوك عالشام حتى تدرس، وتجبلهم شهادة!

- معك حق، معلّم... هلّئ ولا بعدين، حيعرفوا!

- وشغلك؟

- ماشي حالو، عم اتدرّب عالتصوير، وصارعندي خبرة منيحة بالكاميرات والزوايا، مرات بطلع بصور أعراس مع الشباب..

- إي، برافو عليك أبضاي!

يتابع، وهو ينظر إليه بعين راضية:

- بس لا تكون عم تشرب متّة هونيك!

يضحك، مراوغاً:

- لا... بس مرات، قبل ما روح!

يضحك هو الآخر:

- والله أنت وحش!

- ترابيتك، معلّمنا!

- وطي صوتك، لا حدا يسمعك، دفعتلو الإيجار لصاحب البيت؟

- لا والله، لسه، اجى لعندي اليوم عم يطالبني بالإيجار، عطاني مهلة لآخر الأسبوع!

- ولا يهمك... أنا هلّئ بحاكيه، وإذا عصلج معي، أنا بعطيه... تكرم عينك!

- الله يخلّينا ياك، تاج راسي!

- المهم، حاول تدبّرلي من "هديك"... بأقرب وقت!

- وعدني هالأسبوع، بعد كم يوم رح مرّ عليه، وأول ما بيصيروا معي، بجي لعندك!

- طيب، يلا، روح شوف الشاي، شكلو بلش يفور!

- أوف، إي والله، راح عن بالي!

- دركل عالسريع...!

بالعكس.. بالعكس!

- كنت أعتقدهما واحدًا!

- كيف ذلك؟ إنّهما واحد فعلاً!

- لا يا أنور... يوجد اختلاف كبير بينهما.

- حقًا؟ كيف ذلك؟

- الفصام مرض **ذُهاني**، والانفصام مرض **عُصابي!**

- ذُهاني؟ عُصابي؟
أول مرة أسمع مثل هذه المصطلحات..

- هناك نوعان من الأمراض النفسية التي يتحدث عنها الكُتّاب، والفرق بينهما دقيق جدًّا.

- أعطني بعض الفروق!

- حسنًا... الأمراض العصابية بشكل عام: هي اضطرابات نفسية، تؤثر على سلوك الإنسان وعواطفه، لكنها لا تؤدي إلى فقدان اتصاله بالواقع **(أومأ برأسه وهو يتابع)**

بمعنى أنه يمكنه عيش حياته بشكل طبيعي، وقد لا ينتبه أحد ممن حوله إلى اضطرابه، وبإمكانه الزواج، وإنجاب الأطفال، والعمل، وكل شيء!

- والذُهانية؟

- أمّا الأمراض الذهانية يا صديقي، فهي:
اضطرابات نفسية تؤثر على التفكير والإدراك، مما يؤدي إلى **فقدان الاتصال بالواقع!**

رفع حاجبيه بدهشة:
-على ما يبدو أن الفارق بينهما هو الاتصال بالواقع من عدمه؟

- تقريبًا... ولكن مع اختلاف في **جوهر الأعراض.**

- الأعراض؟! كيف ذلك؟

- نعم، أي ما تنتجه هذه الأمراض على أرض الواقع، مثلاً: عندما تؤلمك معدتك، تكون الأعراض الظاهرة هي: ألم الرأس، أو ربما الخمول، أو عدم التركيز... هذه كلها أعراض لألم المعدة!
وكذلك **الأمراض النفسية**... يؤلمك شيء في نفسك

الداخلية، فيظهر بأعراض خارجية، تختلف حسب شدة ذلك الألم الداخلي!

-آها... يبدو أنك تعمقت كثيرًا في هذا الأمر!

- نعم، اسمع، أعراض الأمراض **الذهانية** تشمل: الهلوسة (رؤية أو سماع أشياء غير موجودة)، الأوهام (الاعتقاد بأشياء غير صحيحة)، اضطرابات التفكير، والسلوك غير المنظم

مال برأسه للأمام وقال بفضول متصاعد:
- وما هي أعراض الأخرى؟ نسيت اسمها..

- أعراض الأمراض العصابية تشمل: القلق، الاكتئاب، الوسواس القهري، الرهاب، واضطرابات الهلع.

- قد لفتني شيء في الأولى... رؤية أشياء غير موجودة، أليس هذا له علاقة بالجن ورؤيتهم؟

- في الحقيقة، لقد لفتتني هذه **الإشارة** أيضًا... لقد تربينا على أن الأشخاص الذين يرون الجن أو يُمسّون، يتحولون إلى مجانين، فيأخذوهم إلى

الشيوخ ليرقوهم، وبعد مدة من القراءة، وممارسة طقوس معينة، يذهب تأثير المس!

- صحيح تمامًا... أحد معارفي حصل له ذلك... بعد أن عجز الأطباء، صاروا يأخذونه إلى **راقٍ معروف**، واستمر لمدة سنة ونصف، كان خلال تلك المدة بين حالتين:عودة الأعراض بشدة... أو الخمول التام، وإلى الآن ما زال يعاني

- نعم، وقد حصل لبعض معارفي مثل ذلك، ولكن... **ماذا لو كان العكس هو الصحيح؟**

- كيف "بالعكس"؟

- بالعكس؟ بالعكس!

يفتح عينيه متفاجئاً، وكأن خيطاً من الكهرباء قد مس عقله:

- أوه يا فريد، هذه فكرة جنونية، هذا مستحيل ...!

- ربما يكون مستحيلاً... ولكن هذا **"محتمل"!**

-أريد أن أسمعها منك... ما هو العكس؟

- العكس يا صديقي، أن تكون "رؤية الجن" بسبب المرض النفسي!

يحاول أن يعتصر عقله:
- رؤية الجن بسبب... إلى الآن لم أستطع تخيل هذه الفكرة، كيف؟! عندما أمرض أرى الجن؟ وضح لي الأمر أكثر.. أكاد أصل إلى نفس فكرتك!

- لا، ليس كذلك، أنت لا ترى الجن أصلًا، لقد راجعت هذه المسألة بين معارفي من أئمة المساجد، وقال لي إن المسألة مختلف فيها اختلافًا شديدًا: بعض القدماء يُنكرون ذلك تمامًا، وبعضهم يؤمن به تمامًا، وهناك من هم في المنتصف..

- كيف يعني "في المنتصف"؟

- يعني، أنهم يؤمنون بوجودهم، ولكن لا يؤمنون بتأثيرهم على الإنسان، لأنهم "هواء"، ولا يستطيع الإنسان رؤية الهواء، إلّا إذا تشكّل، وعندما يتشكل، يصبح اسمه بحسب الشيء الذي تشكّل به!
فإذا تشكل بقطة، فيكون اسمه "قطة"، وإذا تشكل

بهيئة بشرية، يصبح اسمه... ذلك البشري الذي تشكّل به!

- أها.. جميل هذا التفصيل!

- نعم، وأنا أميل لهذا الرأي.. بعض الذين سألتهم، أجابني بجواب رائع!

- حقًا؟ ما هو؟

- قال لي بعد محاورة دافئة، جميلة:
- كيف يأمرنا الله بعبادته، ثم يسلّط علينا بعض خلقه ليتعرّض لنا بالمسّ أو التلبّس؟
هذا فوق طاقة البشر!
وأضاف:
- إن الله عادل، لا يأمر بشيء أو يبتلي بشيء ليس له علاج، وإذا فتّشت القرآن كلّه، لن تجد علاجًا للمس أو للتلبّس، يوجد المعوّذات فقط...
ويوجد بعض الآيات التي تتحدث عن وصف المس:**"كالذي يتخبطه الشيطان من المس"**
وقيل في تفسير كلمة "الشيطان" هنا:

إنها أفعى سوداء كانت معروفة عند العرب بسمّها القوي... الذي يسبّب التخبط!

- أول مرة أسمع مثل هذه التفسير!

وأنا أيضًا.. وأضاف أخيرًا:

- لو كان التلبّس أو المس موجودًا، لتعطّلت القوانين والأنظمة، ولصار كلُّ أحدٍ يرتكب الكبائر والجرائم، ثم يدّعي أنه كان "ممّوسًا"... أو "متلبّسًا بأحد الجن!"

فكَّر قليلًا، مصدومًا بهذا التحليل المنطقي الغائب عن الناس:

- إنها ضربة قاضية، لكل الخرافات الشعبية!

- نعم... لقد أعجبني جوابه كثيرًا، وفي الوقت ذاته، فتح في نفسي مجموعةً أخرى من الأسئلة.

- مثل ماذا؟

- أسئلة مثل:

ما هو الذي يراه المريض الذهاني؟

وكيف يراه؟

هل له طقوس محدّدة لرؤيته؟

هل يمكنه أن يتحكم في رؤيته؟
أم أنه يأتي حسب الحالة المزاجية؟!

- في الحقيقة كلام عميق، وهذا ما يفسّر حالات الشفاء والانتكاس، في الحالة التي ذكرتها لك، مع ذلك المريض والراقي!

- أحسنت... هذا ما قصدته تمامًا..
ما مصدر تلك التخيلات؟ وهذه الصور؟
أو ما يسمّى بالهلاوس السمعية والبصرية؟

ضرب جبينه بيده:
- لقد ذكّرتني هذه الكلمة ببعض ما كان يقوله أهل ذلك المريض:
"يسمع أصواتًا لا نسمعها
وأحيانًا... نسمعه يتحدّث مع نفسه، أو مع أحدهم
يشير له بإشارات مختلفة... غريبة"
متنهداً تنهيدة امتنان:
- أنا سعيد لأنك هنا، يا أنور!
هذه المعلومات، تثبّت فكرتي عن الموضوع تمامًا!

- حقًّا؟ كيف ذلك؟

- أتتذكّر تلك المسكة التي أخبرتك عنها؟
وحديث زياد الغريب... الذي لم أفهم منه أي شيء؟

- هاا نعم، نعم

"إذن هذه "المسكة"... من صنع خياله!"

مسٌّ شيطاني!

قلنا الجملة الأخيرة معًا، وانفجرنا بضحك هستيري، قال أنور متحمسًا:
- اذهب واصنع لنا القهوة، إنها جلسة مجنونة!
ثم نهض معي، قائلًا:
- سأذهب معك... أخشى عليك أن يصيبك الجن بسوء!

- ها..ها..ها
تخشى عليّ؟ أم تخشى على نفسك يا جبان؟

-لا إطلاقًا..

- أتعلم يا أنور.. هذه الأحاديث هي أكثر ما يثير حماسي، وأتمنّى حقًا أن ألتقي ببعض الجن،

وأختبرهم، وأسألهم بعض الأسئلة... التي لا أجد لها جوابًا!

يردُّ ببرود، لا يخلو من السخرية:

- نعم..نعم أعلم ذلك، المجانين أقصى اهتماماتك!

صمتنا لحظة، ثم قلت:

-عند العودة إلى كلام أم زياد: أن الأطباء شخصوا حالته بأنه مصاب بالفصام، وأعطوه الدواء الذي رماه، لقد كانت هناك فرصة حقيقية لشفاءه!

- نعم، على ما يبدو.. ولكن كيف تتشكّل هذه الصور أوالأشخاص عند المريض؟

- إنها لا تتشكّل أصلًا يا أنور، بحسب ما قرأت في ذلك الكتاب، فهو **خلل في كيمياء المخ**، يعطي أوامراً غير منطقية لتشكيل الصور لعَيْن المريض، فيراها في عقله، مثل النائم الذي يتحدّث ويمشي في نومه!

- كأنّ المريض نائم... ولكنه صاحٍ في نفس الوقت؟

- تمامًا يا أنور، وهذا ما يفسّر أيضًا عدم قدرة زياد على النوم، وعندما يريد عقله أن يجد المبررات المنطقية التي لا تجعله ينام، يتّهم أمه، ويخترع "مسكة" تتحكم بالنوم وبالبشرية!

- ولكن لماذا "مسكة"؟ وليست شيئًا آخر؟

- لا أعلم تمامًا.. ولكن أعتقد أن **تأويلات العقل**، غالباً ما تكون من خبرات الشخص الذي يعاني!

- ماذا تعني؟

- أقصد، أن الكاتب يتخيّل قلمًا، والحدّاد يتخيّل مطرقة، وسائق الباص يتخيّل مسكة الباب... أو مسكة الشباك!

- آهـــا
هذا أمر عجيب وغريب... حقًا!

- نعم، وهذا ما يجعلني أرغب في مساعدته..

- لا، لا تتدخّل في هذه الأمور، ستقع في الكثير من المتاعب، وكيف ستفعل ذلك؟
أنت تحتاج إلى رخصة !

-موافقة الأم تكفي، وسأعطيه نفس **الوصفة الدوائية**، واقنعه بشرب الدواء... **فيشفى!**

- إنها مخاطرة كبيرة يا فريد!

- نعم، ولكن يجب أن أحاول، هناك ما يدفعني للمحاولة، أشعر أن كل تركيزي منصب على ذلك الشخص، وأنت تعرفني، أحب خوض **التجربة** لأقصى حد بها!

- نعم..
أعلم كيف توقِع نفسك دومًا في المصائب بسبب هذه العادة!

- إنها ليست عادة يا صديقي..
إنها **مس شيطاني !**

٦

باب الدهشة

حاضر وسوق!

قبل وقت طويل، وعندما كان سكان البادية يستوطنون شرقي مدينة حماة، يُصدِّرون بضاعتهم المحلية إلى سكان المدينة، التي تبعد عنهم مسافة ليست بالقريبة، تقدّم بعض كبارهم بطلب إلى ملك حماة الأيوبي في ذلك العصر، كان فحواه: أن يُقتطع لهم أرضًا صالحة للإقامة في المدينة، تسهيلًا لأمور تجارتهم، إذ إن كثيرًا من اللحوم، والألبان، والأجبان، تصل إلى السوق وقد انتهت صلاحيتها، بسبب الحرارة والعوامل الجوية المختلفة، بالإضافة إلى صعوبة التنقلات والمواصلات المتقلّبة حسب الأنواء الجوية.

فما كان من الحاكم الأيوبي إلا أن **أمر، باقتطاع منطقة تقع شرق النهر،** في مكان قريب من المدينة، وليس داخلها!

هذا القضاء الذي أبرمه الحاكم، لم ينل رضاهم التام، لأن مثل هذا القرار لا يُفيدهم، وقد كان مطمعهم أن يكونوا **داخل المدينة،** وليس قربها!

كان جواب الملك، حسماً لأي جدل - قد يحصل - بعد أن قرأ في أعينهم الرفض، فقال لهم:

"هذا هو الحاضر" أي المتوفر لدينا..

تعارف الناس لاحقًا على تسمية تلك المنطقة المقتطعة بـ"الحاضر"، والذي كان عبارة عن سوق كبيرة، فيها ألوان من البضائع المستوردة من البادية، مع مرور الوقت، أُقيمت فيه بعض البيوت، ثم توسّعت لتشمل أحياء كبيرة، حيث انتقل الكثير من أهل البادية للعيش في الحاضر.

في البدء، كان السكن مقتصرًا على التجار المنتقلين من البادية، ثم انتقلت عائلات أولئك التجار تدريجيًّا، وما لبث أن تحول إليهم بعض سكان المدينة – بشكل مؤقت – للقيام على رأس أعمالهم التجارية، واتجهوا أخيرًا للعيش في الحاضر، **خاصةً بعد الزلزال العظيم**، الذي ضرب المدينة، مخالطين بذلك أهل البادية مخالطة مباشرة، ولا يخفى عليكم نتائج تلك المخالطة، من تغيّرٌ في عادات الطعام، والشراب، واللباس،حتى في اللهجة، وبعض المصطلحات!

على طرفي نهر العاصي -الشرقي والغربي- اتفق الأمر على أن يُطلق أهل المدينة الأصليون على الذين انتقلوا للعيش في "الحاضر" لقب: **"الحواضرية"**، تاركين لأنفسهم لقب: **"السوَقية"**

أي سكان السوق!
هذا التقسيم الطبقي، هو أول بذور النعرات التي حصلت لاحقًا بين الطرفين، مع ما في مصطلح "أهل السوق" من **التعالي،** الذي أدى لظهور الحزازات والنعرات، منذرة بنشوب حرب قبلية، منبعها: التعصّب للمكان، التعصب للمهنة، والتعصّب للعرق!
وإذا أردتَ الحديث بشكل مفصّل، عن العوامل النفسية والاجتماعية التي نتجت عن تلك النعرات، فإن الأمر ليطول جدًا، إلا أنني سأحاول شرح بعضها، **حسب ما أعتقد؛** وأقول "حسب ما أعتقد"، لأن مثل هذه الحوادث **لا تُدوّن في كتب التاريخ،** إنما هي مؤشرات اجتماعية لا تُقاس بضوابط علمية رصينة، يستشعرُ وجودَها **المتأملُ فيها،** فتبقى محض **نظريات قابلة للتصديق.**
بعد انتقال الكثير من العوائل **" السوَقية"** للعيش في **"الحاضر"،** غلب على طباعهم طبع أهل البادية، وهذا تطبّع **لا إرادي، حاصل لا محالة!**
حتى صار أهل السوق، يتناقلون الأحاديث عنهم، وعن عاداتهم الجديدة، وما لبث أن تحوّل الأمر إلى **ضحكات خافتة،** ثم إلى **قهقهات علنية،** وهمز ولمز

على المكشوف!
والمتعارف عن أهل السوق: شغفهم بهذا النوع من السخرية، تبعًا لثرائهم الاجتماعي الذي عايشوه! بمرور الوقت، تحوّل الأمر إلى مظاهر **صاخبة من الرفض والاستهزاء العلني**، مما تسبب في بناء **حاجز نفسي يصعب كسره**، مع الأيام والسنين! شيئًا فشيئًا، **تقوقع سكان الحاضر** -المنتقلين من المدينة- على أنفسهم، تاركين صِلاتهم مع أهلهم وأصحابهم في السوق، نتيجة تلك المشاحنات والمشاجرات العلنية، والتي غالبًا ما تنتهي بـ **قتل أحد الطرفين... أو كليهما!**
هذا الجفاء...استمر لأكثر من **ربع قرن**، كان من **المعيب** أن يتزوّج أهل السوق، من أهل الحاضر، وكانت كلمة: **"حواضري"** ترادف تمامًا كلمة: **"متخلِّف!"**، هذه الكلمة وحدها، كافية تمامًا لأن **تُزلزل كيان من ذنبه الوحيد... أنه وُلِد في الحاضر!**
الظلم الاجتماعي موجودٌ في كل مكان من العالم، إلّا أنه ظلم **مؤقت**، وحاجز وهميٌّ **يصطنعه الناس**، ثم لا يلبث أن يزول مع مرور الوقت، عندما **تلمع أسماء أطباء**، ومهندسين، ومعلمين، من ذوي

الكفاءات العالية، فتجعل تلك النعرات البالية **تذوب،** مع تلك النظرات **الخجولة،** التي تلمع على محيا الطرفين... عندما يلتقيان!
فتتحول تلك السخريات إلى نُكات، يضحك عليها الطرفان معًا، ومع تدخل **عقلاء المنطقتين،** صار من المعقول جدًّا أن يتزوج الحواضري من السوقية، والعكس بالعكس!
على إثرها، تساقطت تلك المسميات، وصارت **طيَّ النسيان،** لا يذكرها الناس إلا على سبيل **الفكاهة والسَّمَر!**

قلبٌ واحد!

في منطقة **"الحاضر"**، أُنشئ سوق **"الحاضر الكبير"**وهو أول منطقة سكنها أهل البادية، ثم **توسعت المناطق** من حوله، لتشمل جزءًا كبيرًا، متصلة بـ **نهر العاصي** من أكثر من جهة، وعند **ساحة العاصي،** تنقسم محافظة حماة إلى حاضر وسوق.
وفي نفس الساحة، حيث صار **معلومًا** لديكم، وجود **"حديقة أم الحسن"**، التي يحتضنها نهر العاصي من أكثر من جهة، وعلى أطرافها، تنتشر النواعير،

وفي نهايتها، عند مَيلِ النهر غربًا، يرتفع فوقه جسر صغير، **وهو جسر الكيلانية**، بمحاذاة جامع نور الدين الزنكي **"جامع النوري".**

...يتابع نهر العاصي مجراه جنوبًا، تتناوب فوقه **الجسور** كأنها **أذرعٌ حجرية متعانقة**، تربط السوق بالحاضر، ذلك النهر، الذي امتدّ بينهما كشبكة أعصاب وشرايين، يربط بين أذين وبطين قلب المدينة، ينبض بديمومة وسحر لا يفنى!

ناعورة الدهشة!

كانت يد القدر تسوقني إلى الطريق المنحدر، الذي يلتقي عند باب النهر، كعادتي، في كل يوم الجمعة، وعندما أنتهي من زيارة أسرتي، أنزل إلى هذا المكان المقدّس، حيث تصطفّ أحجار القناطر القديمة، متّصلة بتلك الأشجار التي تتابع حديثها الأزلي مع النهرو**ناعورة الدهشة!**

كان آخر خيط من أشعة الشمس، ينغمس ببطء في تلك المياه الراكدة، كسيجارة أخيرة من نهار طويل، يطفئ آخر ما تبقى له من نشوة، في منفضدة رطبة!

انعطفتُ يمينًا نحو القلعة، فلمحتُ شبحًا خلفي، وكأنه

يناديني، التفتُّ صوب الصوت، لأجد **خالد**، يلوّح لي بيده، ولم يكد يمسك بيدي مصافحًا، حتى سحبني إليه بشدة وقال:

- والله ما بتروح، وما في ولا أي عذر، إنتَ بضيافتي اليوم!

- انتظر، خالد... بس شوي!

كانت كلماته كعاصفة، ويده الممسكة بيدي لم تدع لي مجالًا إلا أن أتبعه، في محاولة لتخفيف حماسته:

- انتظر قليلًا يا خالد...

هل بيتك بعيد؟

لا أستطيع أن أتأخر، لديّ بعض الأعمال!

- قريب... قريب أستاذ،

فنجان قهوة بس، ما بخليك تتأخر.

- طيب يا خالد، بس على الأقل روح خبرهم إنك جايب ضيف معك!

- عادي... عادي أستاذ، إنتَ من أهل البيت!

- كيف من أهل البيت، وأنا أول مرة بدخل لعندكم؟

لم يجب، ولم يترك لي أي خيار سوى أن أتبعه...
في الطريق، كان خالد ينظر إلى شباك أحد المحلات، ثم همس، وكأنه يحدّث نفسه:

- يمكن راح عالجامع!

بعد الدكان بخطوات، ينادي من أسفل إحدى الأبنية:

- أمي!... أمي!

جاءه صوتها من الطابق العلوي:

- إي خالد..

- إي... معي الأستاذ، ساويلنا قهوة

- أهلاً وسهلاً... تفضلوا، اطلعوا.

دخلنا من الطابق الأرضي، حيث كانت تجلس في البهو الخارجي عجوز **شبه نائمة**، أيقظها سعال خالد، صعدنا بخفة على الدرجات المتراصة، الواقفة بشكل عشوائي، لنجد بانتظارنا امرأة في ريعان شبابها، ظننتها أخته، حتى ناداها:

- أمي... ساويتي قهوة؟

- أهلين وسهلين، تفضلوا، ليكا عالنار...

أشار إلي معرِّفاً:
-الأستاذ فريد، بيشتغل بالجريدة، حكيتلك عنه.

- مية السلامة أستاذ، خالد كتير بيعزك، ودايمًا بيحكيلي عنك بالخير، ويارب يقدّم اللي فيه الخير!

- الله يسلمكِ خالة، وتفرحي بخالد وتشوفيه بأعلى المراتب!

- الله يحفظك وينوّر دربك، شلون قهوتك أستاذ؟

- سادة، لو سمحتي!

- تكرم عينك!
كانت ترد كل كلمة أقولها، بكلمة أحسن منها، لم يكن هناك مجال لمجاراتها، التفتُّ إلى خالد وقلت له بافتخار:
- ما شاء الله... أمك امرأة عظيمة!

- الله يخليك أستاذ، وبعد شوي بيجي الوالد من صلاة المغرب.

- الله يتقبّل، إي بعرفه لأبوك، التقيت فيه مرة بشارع ٨ آذار، والتقيت به مرة أخرى قريبًا من بيتكم!

- إي حكى لي البابا...
صمت لحظة، ثم قال:
- إي شلونك أستاذ؟
أجبته، مستدركًا:
- جبتلي اللي وصيتك عليه؟

- والله لسه ما طلعت، إن شاء الله أول ما سافر عالشام، مباشرة بساوي الورقة وبجي لعندك.

- إن شاء الله خير، إنتَ شاب طيب، وسأحاول مساعدتك قدر الامكان!

- أشكرك أستاذ.. إن شاء الله!

لا يدخن!

أحضرتِ القهوة، وجلست معنا، ألمح فيها **ملامح الطيبة**، وذلك الوجه الحامي للضيف، فأدركتُ سر القوة التي يتمتع بها خالد!

عيناها موزعتان بيننا، وبين المطبخ، وبين ابنتها التي كانت تسترق السمع والنظر أحيانًا، لتفهم مَن هذا الزائر الغريب، أما خالد، فقد كان مشغولًا باشعال السيجارة تلو الأخرى، بادرت الأم أيضًا بإشعال سيجارة من دخانها الأحمر، ثم سألت:

- ما بتدخن يا أستاذ؟

عندما سألتني، كانت **تقرص** خالد بخفة من فخذه، ليعتدل في جلسته، التي شيئاً فشيئاً أخذت طابع الاستلقاء، أجبتها:

- لا، أنا لا أدخن!

- الله يبعدك عنه يا أستاذ.

- آمين، ويبعده عنكم، ويعطيكم الصحة والعافية..

- آمين، والقايل، من وين حضرتك، بلا صغرة؟ من أي منطقة؟

- قريب عليكم... بحي الثكنة!

- إي قريب كتير، من أي عيلة حضرتك؟

- من بيت....

- والنعم والسبع تنعام!

- الله يسلمك، والنعم منكم!

- حضرتك متزوج؟

- لا والله، لساتني عم أُسّس حالي، لكن عندي سكن خاص في حي باب البلد.

- سكن خاص؟ ليش.. بيت أهلك صغير؟

- صغير شوي وعددنا كبير، وبحب كون لحالي بسبب شغل الجريدة، بالبيت ما باخد راحتي...
لم أكن أريد أن أشرح أكثر، فالمساحة التي أعيشها وحدي، ليست **هروبًا من أهلي** فقط، بل من **نفسي** أحيانًا!
- الله يقويك أستاذ، وإن شاء الله منفرح فيكم أنت وخالد عن قريب..

- آمين، إي والله، خالد بيستاهل، بس يشدّ حاله ويخلص الجامعة، وإن شاء الله الأمور تمام.

- إي باقي له هالسنة، وإن شاء الله بيتخرج..

- إن شاء الله، خالة... كم واحد إنتو بالبيت؟

- أنا -أعوذ بالله من كلمة أنا- وأخوك أبو الليل، وعنا خالد، وبنتي آية.

عطر الأمهات!

مستفهمًا:

- أبو الليل؟

- إي هو أبو خالد، بس من زمان بيسموه هيك، من أحداث الـ٨٢

- يعني كان مشارك فيها؟

- كان صغير، متل كل هالشباب، دمهم حامي، وبيحبوا البلد، أكيد ما حدا بيرضى بالظلم، بوقتها تصاوب برجله، ما بعرف إذا لاحظت، شوي بيعرج على رجله!

- آه... اي صح، انتبهت عليه!

تساءلت في داخلي:

كم من أرجلٍ في هذا البلد تمشي مثقلة بتاريخ لا

يُرى؟ وكم من قلوبٍ تمشي دون أن تُشفى؟
- إي والله... بوقتها انسجن، وعملنا مليون واسطة حتى قدرنا نطالعه، بسبب هالاصابة ما عاد يقدر يشتغل شو ماكان، فتحنا هالمحل، والحمد لله مستورة!
مرّت أثناء حديثنا أخته الصغرى، كانت شقراء، نحيفة، يتراوح عمرها بين الثانية عشرة أو الرابعة عشر، سلمت مسرعة، دون أن تنتظر رد السلام! تركت خلفها أثر عطرٍ خفيف، **يشبه عطر الأمهات،** وكأنها لم تكن سوى ظلًا صغيرًا لأمها حين كانت بسنّها. تلك الشرفة المطلة على الشارع، تنتشر على أطرافها الكثير من العلب الملونة، المملؤة بالزهور! ومن الداخل، تتوزع بأبوابها على الصالون، والمطبخ، وباب أسود مغلق!
مرّت أكثر من نصف ساعة، وخالد غارق في الدخان، بين الفينة والأخرى، يستدرك حديثي مع أمه، بقوله:
- يا أهلا بالأستاذ... نورت!
أو:
- شرفت البيت، بيتك!

هممت بتوديعهم، فاستقام خالد ناهضًا:
- قاعدين أستاذ!

-لا، خليني أمشي... عندي شوية شغل.

- طيب، رح وصلك لتحت..

- شكراً على القهوة، خالتي أم خالد.

- يا أهلا وسهلا، ما محسوبة ها، المرة الجاية غداك عنا!

- والله ما بدي إلا سلامتكم...
نزلنا الدرج، وخالد غارق في صمته، يخطو بسرعة، استوقفته:
- خالد، أنا رح أتركك هون.

- لا أستاذ، عاوزك بموضوع!

- تفضل، أنا معك.

- بس خلينا نمشي شوي عالكورنيش؟

- يعني ضروري الموضوع؟

- إي والله... ضروري!
خطر في بالي أنه يحتاج إلى بعض المال، فركتُ له أصابعي، مشيرًا:
-هل تريد شيئًا؟

- لا لا أستاذ، الله يسامحك، إنت أخي، وأكيد أي شي بحتاجه ما رح أستحي منك!

- طيب، لكان خلينا نمشي!

الله.. خط أحمر!

مشينا بصمت، مع بداية شارع الكورنيش، مصابيح الشارع الصفراء، تكسو وجهه بنوع من الحزن الناعم، كأن السماء تحاول أن تخفف عنه بعض ما يحمل، حاولت كسر الصمت بالسؤال المعتاد عن الطقس، عن تقلباته في مثل هذه الأشهر من السنة فأجاب باقتضاب:
ــ إي والله، أستاذ.
نظرت إليه، وتابعت بعد لحظة:
ــ شو بتخبرني يا خالد؟

كنا قد وصلنا إلى القناطر المطلة على ناعورة الجسرية، خلفنا القلعة، بازغة ككوكب يشق وجه الأرض، قال دون أن ينظر إلي:

ــ والله عادي أستاذ، ما في شي... بس حابب أتمشى معك شوي.

(عادي؟!)

كل هذا الصمت والسكون و"عادي"؟!

كنت أحاور داخلي، لكن الكلمات خرجت من لساني تلقائيًّا:

- ماهي "العادي" يا خالد؟ عم تفكر بخطيبتك؟

هز رأسه، ونفث دخانًا خفيفًا:

ــ لا والله أستاذ... يمكن أتركها!

ــ ليش؟ خير، شو صار؟

ــ ولا شي... متل ما بتعرف العقلية القديمة "حاضر وسوق".

ــ لا حول ولاقوة إلا بالله، امتى بدنا نخلص من هي الافكار!

سكت لحظة، ثم رمقني بنظرة سريعة كأن فكرة ما ضربت رأسه فجأة:

ــ أستاذ... بتحب الله؟

ابتسمت، وأجبت بثقة:

ـ إي أكيد... الله هو اللي عطانا كل شي، ليش لحتى ما أحبه؟

ــ يعني... بتحب الله؟

ــ إي طبعًا. وأنت يا خالد؟

ــ إي أكيد... أنا عندي "الله" خط أحمر!

ــ ممتاز... طيب شو الدليل إنك بتحب الله؟

نظر إلي، كأنه يوزن كلامي، ثم ابتسم، وضحك بخفة:

- على راسي والله، أستاذ!

ــ طيب، بتصلي يا خالد؟

ــ إي والله... أوقات وأوقات..

ــ ما لازم تقطع، يا خالد. الصلاة بوصلة الإنسان، تدله على الطريق الصحيح.

ــ معك حق... الله هو أعظم شي بالدنيا.

ــ مو بس بالدنيا، الله أعظم من كل شي!

ــ الله أكبر!
ضحك، وأشعل سيجارته من جديد، كأنني أخبرته بخبر جديد!
لم أستطع فهم شخصيته، قفز برأسي سؤال واحد، ولم أستطع كتمه، فسألته مباشرة:
ــ خالد... إنت بتـحشّش؟
توقعت ارتباكه أو ضيقه، لكنه قال بهدوء:
ــ أنا راسي كبير... وما بيأثر فيني الحشيش!

ــ يعني بتحشش ولا لاء؟ وامتى آخر مرة؟

ــ قبل ما التقي معك... بشي نص ساعة!
تطايرت الأفكار في رأسي بعد جوابه الأخير، استندت إلى السياج الحديدي، أُفرغ ذهني وسط صوت الناعورة ورذاذها المتطاير، صوت الداخلي يصرخ:

"ماذا تفعل هنا يافريد ؟!"

استدار خالد فجأةً، مُسندًا كرشه الصغير على السياج، دون أن يخرج السيجارة من فمه، رفع رأسه نحو السماء، وصرخ بكل ما أوتي:

ـ ياالله!

ـ يـا الله!

ـ أنا بحبك يا الله!

صعقني صوته، وتلك الصرخة، وذلك الموقف! وزاد الطين بلة: نظرات المارة، والواقفين قربنا.. الذين ما إن سمعوه، حتى بدؤوا بالتصفير والتصفيق والصراخ الذي لا يخلو من السخرية:

ـ "حيو أبو الليل! عيد وزيد"

حتى الناعورة، كأنها التقطت صدى صوته، وأخذت تدور بلحنٍ بطيءٍ غريب، كأنها تُعلن معه، بطريقتها القديمة حبها لله، كنتُ في سرّي، أناجي الله أيضًا:

"ياالله..أنقذني من هذا الموقف..

لماذا انا هنا ؟!

ما الحكمة يا الله؟!

لا ادري، لا أدري"

صارت وصارت!

- عادي أستاذ... الله بحبك كمان!
قالها، وكأنه يحاول استدراجي، يقرأ أفكاري، ويجيبني على حسب ما يسمع من قلبي.
لم يعد ينفع الهرب، وقد أصبحتُ مشهورًا، بعد صراخاته، أقول لنفسي:"يلا، صارت وصارت"
في محاولة لاستدراجه:
- بالتأكيد، ولكن يا خالد، لماذا أنت متيقن من أنه يحبك، وأنت على ما أنت عليه؟
جوابه المعتاد الأكثر من عادي:
-عادي أستاذ..

- خالد، أنا ما قادر أفهمك إلى الآن.

- ولا رح تقدر!
قالها بنبرة مشوبة بالغرور، وأضاف:
- حاولوا كتير قبلك يفهموني وما قدروا!

- ليش يا خالد؟ أنا بعرف إنك إنسان ذكي جدًا.

- وأذكى من الذكي!

- أكيد! يعني ما في حدا بيقدر يفهمك بكل هالعالم؟
- مبلى... في شخص واحد!

- ممتاز! مين هالشخص؟
توقعت أن يقول: أمي، ترددتُ في نطقها، وتركته على استرساله.. فقال:
- شخص واحد كان صديقي، وأخي، وكل شي!

- كان؟ وينه حاليًا؟

- موجود... بس ما منحكي مع بعض!

- ليش؟

- شوية مشاكل

- مشاكل شو؟

- مشاكل عائلية!

- أها... طيب، وين هالشخص؟ بقدر شوفو؟ يمكن أتعلم منه!

- شو بدك تتعلم منه؟! بيعلم بلد!

- يعني بركي بحاول ترجع علاقتكم مثل قبل؟

-بيحشش معك؟
قلت ذلك بصوت هامس، حتى لا ينتبه إلينا الناس المتجمعون خلفنا، يلتقطون الصور مع هذا النصب الذي ينبض منه عبق التاريخ!
أشار لي برأسه:
- إي... بس ترك!

- متأكد إنه ترك؟

- إي هيك عم يقول!

- وانت شلون عرفت؟ بس من كلامه؟ ما بتعرف إنو في آثار انسحابية ولازم يتعالج؟

- لا أستاذ، ترك. وبعدين القصة ما بدا شي... يشرب لبن وتوم على أربعين يوم، بيرجع نظيف!

- لبن وتوم!!؟

ضحكتُ رغمًا عنّي... ثم استدركت:

- طيب، خلينا نشوفه... شوقتني!

- إمتى ما حبيت، منروح عليه ومنشرب قهوة.

- موافق... بكرا بعد دوامي.

- "أرواح" هلئ!

- هلئ؟ مو حلوة نروح على البيت بدون موعد، والوقت متأخر!

- ما رح نروح على البيت... رح نروح على المقهى!

- وين؟

هو بيشتغل بالمقهى؟

- إي.. المأمورية!

"المأمورية" كانت تلك الكلمة كصاعقة على مسمعي، تفتحت بها آلاف الدوائر من الأسئلة: **هل هو ذلك الشاب...؟**، اخترت سؤالي التالي بحذر شديد، خشية أن تتحول هذه الليلة، إلى سلسلة من المخاطرات الخرافية:

- هل هو نادل هناك؟ هل يرتدي قبعة دائمًا؟

وقع جوابه على مسمعي يشبه المطرقة:

-هو بذاته!

يا إله الكون ..إنه هو إذن!

ذلك الشاب الرياضي، بحضور الغامض الذي لم أجد له تفسيرًا!

لطالما تساءلت عن أمره..

هل حقًا ما تفكر به، يحصل لك؟

هذا هو قانون الجذب إذن؟

هذا الكمّ من المصادفات، لم أعد أستطيع استيعاب أي جزء منها، أنا أعرف أن حماة مدينة صغيرة... وكل الناس بتعرف بعضها، لم أكن أتصوّر أن تكون المعرفة بهذه الصورة المباشرة... المفاجِئة!

- شو أستاذ؟ بتروح أعرّفك على أبو غالب؟

- اسمه أبو غالب؟

- إي... أحمد عبد الملك!
نظرت إلى ساعتي، بحسابات بسيطة، ألغيتُ كل المخططات التي كنت أنوي فعلها هذه الليلة.. وكل الأفلام التي خبئتها: **لكي أتابع فلم القدر الذي يقودني.. إنه قدري!**

- لنذهب!

حيث ابتدأ كل شيء!

كانت صافرة فمه أسرع من لمح البصر، أوقف بها أبعد تكسي مرّ بنا، فرجعت سيارة الأجرة حيث نقف، لتقودنا من ضفة الدهشة، إلى ضفة المأمورية، حيث ابتدأ كل شيء!
في سيارة الأجرة الصفراء، كانت دوائرُ الأسئلة تتّسعُ في رأسي، تدور دون رحمة، **سؤالٌ ضبابيّ** لا يغادر المشهد:
"لماذا أنا هنا؟
ماذا أفعل بالضبط؟"

يتناثر السؤال، دون أن يترك صدى لإجابة، في عتمة أفكار تتنازعني: **أبو غالب... المأمورية...** هاجسٌ خفيّ يهمس لي بأنه هو ذلك الشخص **هل هو حقًّا؟** ثم ماذا؟ ماذا سأفعل هناك؟

هل أملك **عصا الإحياء؟** هل تحولت حياتي من صحفي اجتماعي، ألتقط الصور والأحداث، إلى مصلح اجتماعي، أم أنني مجرد مهووس بالعوالم السوداء، عاشق لوجوه تبتسم في النهار، وتصرخ في الليل، مجتمعٌ ظاهره الرحمة... وباطنه العذاب**!**

أوه **أنور..**أرجو ألا يكون هناك..نظرتُ إلى هاتفي، طمأنت نفسي: في هذا الوقت، هو مع عائلته... كما قال، **لكن..** ماذا لو ساقته يد القدر إلى هناك أيضًا؟ عندها، سأكون **أضحوكةً أخرى** على لسانه**!**

ابتسمتُ بيني وبين نفسي، ثم عدتُ أتأمل النافذة**!**

كنا قد اقتربنا من المقهى، الإنارة الصفراء لمدينة حماة، أضفت على الشارع **هالة قدسية،** كأنها مهبطٌ هادئٌ للوحي الأمين، أو قشرةٌ سقطت من **حجاب الشمس الذهبي،** فاكتست بالدفء... وبالخمول**!**

إنها الحياة إذن، في ثوبها الليلي**!**

مذياع التاكسي، يصدح على خجل، بدرسٍ يلقيه شيخ من شيوخ الشام، إنه **الدكتور راتب النابلسي،**

كم أحب هذا الرجل، بصوته الهادئ، ونَفَسه الإيماني الرصين!
لطالما استيقظ الناس على صوت فيروز!
ولطالما استمتعتُ بالاستيقاظ على صوته، إنه بالنسبة لي: **صوت الإيمان!**

رسالة مشفرة!

نزلنا من السيارة، وقد لمحتُ في خالد حيويةً ومتعةً لم أعهدها منه من قبل، كان يسابق قدميه، رافعًا صدره **"معرِّض"**، وكأنه يدخل عرينه المعتاد، يُجيل بنظره بين الطاولات المتوزعة في ساحة المقهى، التي تلتقي مع نهر العاصي ونواعيره، مع إطلالةٍ مدهشة على الضفة الأخرى، حيث تنتصب **حديقة الحسن**، جاثمةً بحُسنها، وجمالها، ودلالها الليلي المهيب!
تخلّفتُ بضع خطوات عن خالد، لأن مشيته كانت توحي بالكثير من **العنترية**، التي ما اعتدتُ على الظهور بمظهرها، ولا أن أرافق أحدًا يتقمّصها بهذه الثقة!
من بعيد، كان **"أبو غالب"** يقوم على خدمة الزبائن، وفي المطبخ، شابٌ آخر، قد رأيته في

بعض الأحيان.
بصوتٍ يشبه الطبل البعيد على جدار الليل، ينادي خالد:
ـ حبيب القلب أبو غالب، عدنا لأحضان الحبيب!
بلا تكلّف، رفع رأسه قليلًا، لوّح بإصبعه، كأنه يرسم دائرة في الهواء، ثم هزّ كتفه بلا مبالاة.. وعاد ليكمل عمله، ترتسم على محياه ابتسامة غامضة!
كانت رسالة مشفرة، بإيماءة واحدة!
قصيدة من اللا مبالاة، تقول كل ما يحتاج أن يسمعه... دون أن يتكلم!
تركني خالد أجلس على طاولة قريبة من إطلالة النهر، متوجهًا إلى المطبخ، حيث تعالت صرخات اللقاء:
ــ أهلين أبو الخِل، والله زمان والله!
فهمت من الحديث، أنه كان بعيدًا عن المقهى لفترة من الزمن ثم انقطع. أصواتهم المرتفعة تشوّش عليّ ما يشغل فكري حقًا، ذلك الشخص الذي التقيته في الحديقة قبل شهر تقريبًا **"زياد"**.. أين هو؟
هل استطاع النوم أخيرًا؟
بحثت عنه، في الحديقة، وفي كل الطرقات التي

تؤدي إلى بيته، ولم أفلح، حتى أنني قد هممتُ لأكثر من مرة أن أسأل أمه، إلا أن جرأتي لم تسعفني!
رغم أن حجتي المنطقية: التعاون معها، من أجل صحة زياد، لكن لا بد من مدخل أدخل به عليها، وهذا المدخل لا يمكن أن يكون إلا من خلاله.
سلسلة أفكاري، قطعها صوت خالد من بعيد:
ـ الله حيّو الأستاذ! يلا، جيتك، جيتك!
أومأت له أنني بانتظاره، نظرت إلى الشاب الرياضي، كنت أعرفه.. ويعرفني، ولكن الآن اختلفت الأمر، ذلك التحوّل الطفيف في المشاعر، كان كافيًا ليبدّلني من عابر سبيل، إلى شجرة ساكنة..كتلك التي تصطفُّ بصمتٍ في زوايا باحة المقهى السماوية..لا تقول شيئًا، لكنها على وشك أن تفهم كل شيء.. فتتكلم!
بعد قليل، جاء خالد، بيده صينية بها ثلاث كؤوس من الشاي، ثم تبعه الشاب الآخر، قال مصافحًا:
ــ أهلين وسهلين أستاذ، شلونك؟ إن شاء الله بخير؟
أجبته بابتسامة:
ــ على راسي... إنت كيفك؟
كان شابًا وسيم الطلعة، بريء المحيا، يجتمع فيه

مزاج الخير والطهر، بادرته قائلاً:
ــ هل تعرف خالد؟

ــ أكيد، خالد....
وقبل أن يُكمل جوابه، كان الشاب الآخر يتقدّم، ضاربًا على كتف خالد:
ــ أحلى جار، رفيق العمر!
دخوله الدرامي، أخفى علامات الاستفهام كلّها، وخاصة بعد أن نظرت إلى خالد، الذي كان مكتظًا بابتسامته المشرقة، وكأنه شخص يعتزّ بصداقته كثيرًا، قلت بابتسامة:
ـ إنها مصادفة جميلة... تفضلا بمشاركتنا الطاولة!
اعتذر الشاب الذي جاء أولًا:
ــ أنا عندي شغل... شوي وبرجعلكم.
وقبل أن يهمّ بالمغادرة، قال لي:
ـ أنا وليد، وهذا أخي أحمد. تشرفت بمعرفتك، أستاذ!

ــ أخوك؟
نظرتُ إليه، وإلى الشاب الذي أخذ مكانه قرب خالد، معتمرًا قبعته السوداء، فيه بعض الملامح المشابهة للشاب الذي غادرنا... إنه أخوه حقًّا!

إلا أن ملامحه **أشد شراسة، مع الكثير من الهدوء المسيطر!**

قال خالد، وقد أشرع سيجارته، وبدأ يسحب منها بعمق وتتابع:

ــ بعرّفك أستاذ... أحمد، أبو غالب!

ــ أهلًا وسهلًا، تشرفنا أستاذ فريد، وهذا اللي راح، أخي وليد.. شو بدنا نساوي!

يقولها متهكمًا، بطريقةٍ ما، وكأنه يقلّد أحدًا، لم أعرفه، وعرفه خالد الذي كان يبتسم ابتسامة غامضة، ناظرًا بطرف عينيه إلى أبو غالب، همس قائلًا لي ولأبو غالب:

ــ يا هلا بالكبير... يا هلا بالأستاذ!

نظر أبو غالب إلى الطاولة وقال:

ــ شو بدنا نضيفك، أستاذ؟ على راسي أنت وخالد!

أجبته، أحاول تذكيره:

ــ أنا أعرفكم جيدًا، فأنا زبون دائم عندكم... إن كنت تذكر، أتيت إلى هنا كثيرًا بصحبة صديقي أنور.

ــ إي أكيد، ولو أستاذ... معناها رح ساويلك ميلو متل العادة!

الناس بتحلف براسك!

أحاديثه **شبه ضبابية**، بين الجاد والهازل، بلا تجاوز لحدود الاحترام، وكأنه مدرَّب على الإجابات المهذبة!. قال خالد، دون ان تغادر السيجارة شفتيه:

ــ شو أخبارك أستاذ؟ إن شاء الله ماشي الحال؟ الجريدة والشغل؟

قلت له، باستياء:

ــ أنت تدخن كثيرًا يا خالد!

أجاب بلا مبالاة:

ــ عادي!

ــ الله يبعدك عنه ويغنيك، خبرني كيف دراستك وجامعتك؟

ــ أستاذ !!

قالها مبتسمًا، وكأنه يذكّرني، وقد تذكرت فعلًا، فتداركت قائلًا:

ــ أوه صحيح،أنت تعمل هناك في مجال التصوير، ولكن..

ــ أهلي ما بيعرفوا، الموضوع بيناتنا!

ــ لا بأس، ولكن الوظيفة في الجريدة تحتاج إلى شهادة جامعية، يجب أن تتابع دراستك!

ـ ياريت، بس هاد الشي مستحيل حاليًا، أنا متخلف عن الدراسة من ثلاث سنوات، وهي آخر سنة لتلقي الدعم المادي من أبي لإكمال دراستي!

ــ أوه، مشكلة والله، أعتقد بأني لن أستطيع مساعدتك في العمل معنا، فأنا مجرد موظف!

ــ مو البابا حكى معاك، وقال إنك رح تساعدني؟

ــ نعم، أخبرني بأن أدعم وظيفتك وأزكّيك عند مسؤولي التوظيف، ولكن الأمر يتطلب شهادة جامعية!

ــ مو مشكلة أستاذ، أي شي بشتغل، زَبّال، كَنّاس، مُراسل، باخد أوراق وبجيبهم!

كان صديقه يتابع الحديث بنظرات شاردة، استوقف خالد فجأة، قال وهو ينظر إلي:

ــ ها خالد... إن شاء الله مشي الحال؟

ــ عم يقول الأستاذ الموضوع بدو شهادة...
بنظرة فيها شيء من السخرية، مشيرًا بيده، يحركها من بعيد، من الأعلى إلى الأسفل، وكأنه يزن خالد:
ــ لك إنت بدك شهادة؟ الناس بتحلف براسك!
بمجرد أن أنهى جملته، انفجر الاثنان بضحك هستيري، يضربان أكفهما ببعضها!
كنت متفاجئًا من هذا الأسلوب الفكاهي، أحاول أن أستحضر إحدى المسرحيات التي يتحدث أبطالها بمثل هذه الطريقة التهكمية، ولم أفلح!
أجبتهم، مستجمعًا ما تبقى من جدّية ذلك اللقاء:
ــ على عيني وراسي، إنتو الاثنين، ولكن الموضوع صعب جدًا، ويحتاج إلى واسطة كبيرة بس رح حاول... شوف شي مناسب.
ثم تابعت:
ــ بتشتغل معي بالتصوير، سأحاول الدخول من هذا الباب، ولكن أحتاج أمرًا ما منك!

ــ أكيد أستاذ، إنت بس قول!
كان أحمد يُجيب بدلًا عن خالد، أما خالد، فقد كان يتابع معنا بصمت، وكأنه انسحب من الأمر وتركه بين يدي صديقه!

ـ خالد... نظرت نحوه:
أريد منك شهادة تزكية من صاحب المحل اللي كنت تشتغل عنده.
أجاب خالد بهدوء:
ــ هي سهلة أستاذ...
هلّئ بخبرلك ياه وبتسأله عني!

ــ لا، لا.. أريد شهادة خطية، مع ختم المحل ورقم الهاتف.
أجاب أبو غالب:
ـ سهلة، أبو الخِل... مو هيك؟
ثم ينظر إليه من الأعلى إلى الأسفل، مازحًا:
ــ شو فيك رد عالأستاذ؟ سهلة ولا صعبة؟

ــ إي، إي... سهلة، سهلة يا أبو غالب!
توجهت إلى أبو غالب بالحديث، بعد أن استفزني في تحكمه باجابات خالد:
ــ وإنت يا أبو غالب، شو دارس؟ بتشتغل شي غير القهوة؟

ــ بالبيت، والقهوة، وبساعد أبي وجدّي بالحارة!
قالها وأجفانه مرتخية، وفي تعابير وجهه شيء من

عدم الاهتمام!

شعرت بالانزعاج من هذه المحادثة، التي لا تُشبهني، نظرت إلى ساعتي، أردت التحقق من الوقت، قائلًا:

ــ أنا سأذهب الآن، لقد تأخّر الوقت، لعلنا نلتقي مرة أخرى ونتحدث أكثر!

ألحَّ خالد عليّ بالجلوس، فأشار لي أبو غالب بأدب كبير، وكأنه شعر بانزعاجي:

ـ تفضل أستاذ، تفضل.

كانت ملامحه مختلفة تمامًا، وكأنه قد تبدل إلى شخص آخر تمامًا، لقد تحوّل إلى: **أبو غالب الهادئ، الرصين، الغامض!**

نادى على أخيه:

ــ وليد، وليد، ساوي قهوة، ثلاثة قهوة...

التفت إليّ:

ــ أستاذ، ذكرني شو قهوتك!

ــ سادة...

ــ وليد، ثلاثة سادة..

لحظة سحرية!

ــ والله يا أستاذ، خالد بيعزك كتير، وحكى لي إنو راح لعندك عالجريدة، وحاولت تساعده، والشهادة لله، أنا شايف بوجهك الخير!

ــ الله يحفظك، خالد بيستاهل كل الخير، وأنت كمان!

المسافة بيننا طاولة، ينتصفنا خالد، وعلى الطرف المقابل يجلس هو، وبشكلٍ ضمني، بدأت أشعر أنني **أقل حضورًا**.. بدا وكأنه سيد الجلسة!

إنه زعيم بالفطرة، لم يكن يتكلّم، بل كان يهمس بصوتٍ مسموع، عندما بدأ يخبرني:

ــ أستاذ، بدي قلك على شي وبتمنى تساعدني، أنا كنت مسحور من زمان، في حدا عملي سحر، وصرلي سنتين عم حاول فكه، بس ما عم استفيد!

بلعت ريقي، محاولًا التأكد من تفاصيل حكايته:

ـ إنت مسحور؟ كيف؟ مين سحرك؟

- سحرتني يا أستاذ... عملتلي "عمل" بالأكل اللي كانت تبعتلي ياه!

ما قادر شوفا، ولا أسمع صوتا، كل ما بتمرق من قدّام بيتنا، ببزق عليها، بتخيّلها كأنها وجه أسود أو كلب أسود، مكتوب عليه كلام سحر وشعوذات!

- يا أبو غالب، ليش بدها تسحرك؟
وكيف عرفت إنك مسحور؟

- في واحد صديق أبي، إجا لعنا ع المحل، شافني، وقالي: **"**إنت عليك سحر**"**، لما طلَّعت على أبي، حتى شوف ردة فعله من كلام صديقه، فقال:
- إي، وشو المشكلة يا أبو غالب؟
روح لعند أبو عمر، خلّي يكشف عليك، حتى نطمن عليك!

- سألته: ليش؟ أنا شو فيني؟

- قال: شلون ما فيك شي، وهالتعصيب والقلق يلي مَعيّشنا ياه، شو هاد يا أبو غالب؟

- طيب، متل ما بدك بابا... التفتُ لأبي عمر وقلت:
بكرا بجي لعندك.

يتابع حديثه معي:

- رحت، قرأ قرآن، وقال لي: "في وحدة مرأة كبيرة، عاملتلك سحر"

شلون عرف؟ ما في حدا بالعالم بيعرف بعلاقتنا.. معقول!!

ثم قال أبو عمر، دون أن يذكر اسم تلك المرأة:

- يجب أن تقطع علاقتك بها تمامًا!

وأعطاني بعض الأوراد، والمَاء المرقي، والعسل، وقال لي بأن أراجعه بعد سبعة أيام.

- من بعدها، صرت أتخيّل إنها كلب أسود، مكتوب عليه سحر وشعوذات!

عندما انتهى من قصته، كانت عيناي تزداد اتّساعًا، دون أن أستطيع النطق بأي كلمة، سألته مستفهمًا:

- كم مضى على هذه القصة يا أبو غالب؟

- يمكن سنتين... أقل شوي

- طيب، وليش هلّق عم تحكي فيها؟

- حاسس إنو بعدني مسحور من هي الكلبة!
مابعرف شو لازم أعمل، عم حسّ في تقل على كتافي وظهري، ودائمًا موجوع، وفي أفكار براسي

ما عم تحل عني !

يضيف بحسرة:

- كل ما بتذكّر المشاعر والحب اللي قدّمته إلها، وبالآخر تحطلي سحر بالأكل، مشتهي أحرِقها!

- طيب، شلون متأكد إنك مسحور منها، يعني ممكن من حدا تاني؟

- أكيد منها يا أستاذ، أنا ما بعرف حدا غيرها!

- وبركي إنت مو مسحور؟

ـ شلون مو مسحور، عم قلك لسّه عم عاني من السحر النحس؟

ـ و المرأة ؟

ـ ممنوع أحكي معها! وهية ممنوع أي حدا يتواصل معها من أهل الحي، لولا زوجها وأولادها، كانت هلّق ميتة!

ـ ميتة.. شو نحن عايشين بغابة؟

ـ مو مهم يا أستاذ، بدي تلاقيلي حل، راسي رح يتكسّر! ما عم أقدر اشتغل!

إنها المرة الأولى التي أرى فيها شخصًا مسحورًا!

هذه **اللحظة السحرية** تدحرجني أكثر فأكثر، لاكتشف العالم الذي لطالما سمعت عنه وما صدّقته... ولا صدّقتُ بوقوعه!

وأنا الآن، أشدّ يقينًا بذلك!

ولتضييق دائرة الشكوك في نفسي، سألته بهمس:

- خالد بيعرف بالموضوع؟

كان خالد سارحًا، ليس معنا تمامًا، وكأنه في حالة نشوة متأخرة، أجابني أبو غالب بحذر أكثر:

- إي بيعرف... بس ما بيعرف مين اللي سحرني، أو يمكن بيعرف وساكت!

وقبل أن أكمل تساؤلي، قاطعني، مغلقًا على الموضوع:

- بعدين.. بعدين!

لبن وثوم!

سألته، وعيني تغوص في عينيه، بجرأة أكبر من جرأته، أشرت له بيدي كمن يمسك بسيجارة ويضعها على فمه، المعنى المفهوم من تلك الاشارة:

- ما زلت تحشش؟

ضحك، ثم نظر إلى خالد الذي استعاد وعيه، بعد أن سمع تلميحي الخفي عن التحشيش،توسعت ابتسامته، التي تلاقت مع ابتسامة أبو غالب، أجابني:

- موقف، صار لي ثماني أيام!

- يعني أنت حاليًا بفترة علاج ؟

- إي، عم أشرب لبن وثوم، بدي أربعين يوم، بيروح كل شي!

- لن وثوم؟

- إي، عندي واحد صاحبي، كان رايح عندو تحليل بول، وكان بيضرب حشيش!

أجّل التحليل ٤٠ يوم، وشرب لبن وثوم، وعالتحليل، ما طالع معاه أي شي!

- أها؟!

والله أول مرة بسمع هي المعلومة!

أضاف، مؤكدًا:

- في حبوب دوا، بتروح كل الأثار، إذا حدا عنده تحليل أو شي مهم بياخدها، بس المشكلة أنو بالمختبر ما عم يبين أثر الحشيش، بس عم يبين أثر الحبوب... عم يكشفوه دغري!

لم أستطع إلا أن أضحك بيني وبين نفسي على هذه **"الكركبات النفسية والاجتماعية"**

يخافون من تحليل البول والدم، ويشربون اللبن مع الثوم، لازالة أثار الحشيش!

شعرت برغبة كبيرة في **مغادرة الجلسة**، ولكن كانت القهوة **"للمرة الثانية"** قد وصلت، وبدأت **ذكريات الماضي تتفتّح** بين خالد وأبو غالب، وأنا أستمع لهما!

اسمك واسم أمك!

لم أشأ أن أقطع هذه الجلسة الودية، بعد طول الغياب بينهما، انتظرت قليلاً، ثم هممت بالانصراف، ولكنه أمسك يدي قائلاً:

- أستاذ... ما بتعرف شي حدا يساعدني بموضوع السحر؟

- والله ما بعرف إذا في سحر أو لأ، بس خليني أسألك.

ثم أضفت:

- ارجع احكيلي.. شو عم يصير معك بالضبط؟

- أستاذ... ما طايق حالي، مرات بشوف حالي بالمراية، بقول: هاد مو أنا؟ وين أحمد اللي كانت الناس تحكي فيه وبجسمه؟!

عم حس حالي كتير ضعيف، لما كانت تصير طوشة، كنت أول واحد فوتها، ولا واحد بيقدر يعلِّم عليي بشعرة!

أثناء حديثه، كان قد وقف، ينظر إلى المرآة البعيدة المطلة من شباك المطبخ، ثم يشير بيده لأخيه الواقف هناك أن يبتعد قليلاً، حتى يطمئن على قامته

وعضلات صدره، يعدّل ياقته من بعيد!
كان ذلك **"البعيد"** أبعد من أن يُرى بوضوح، نظر إلي قائلاً:
- شايف؟ جسمي كتير حلو، وعندي فورما حلوة، عم أعمل كل يوم مئة مرة بوش أب، بالاضافة لتمارين البلانك، وبضل عم حرك حالي، بس ما عم اقدر ارجع متل قبل!
قال مزهوًا:
- أنا من زمان، كنت ملقّب بـ "بويكا"

ـ بويكا؟

ـ إي... هاد الملاكم، صار نازله أربعة أفلام، شايفهم؟

ـ إي إي، تذكّرت هيك شي... بس ما شايفه!

- شي يوم منشوفهم سوا، مع أبو الليل!
ثم قال بنبرة جادة، وحزينة:
- معقول هاد الشي من السحر؟ أديش بدو السحر ليطلع من الجسم؟

لم أستطع إلا أن أُجاري جديته وحزنه:

- ما بعرف يا أبو غالب، بس الأمر بيعتمد على قوة السحر!

قال بحنق:

- يعني ممكن يكون السحر لساته موجود بجسمي؟ الله يلعنه ويلعنها...أنا شو كان بدي فيها وبسماها؟ يلعن الحب وساعته؟

كان الموضوع يتحوّل شيئًا فشيئًا إلى **دراما حزينة أو سوداء، وقد خشيت على نفسي** إن لم أُجبه بما يريد، أن يقوم بضربي**!**

- لا بأس... الموضوع سهل إن شاء الله.

قال بنبرة استنجاد:

- والله أنا ارتحتلك أول ما شفتك، باين عليك ذكي ومحترم وقلبك لله، وأنا معك، سندك، وأي شي تحتاج، بس بدي منك تساعدني بهي الشغلة.

لم يكن هناك بدّ من المجاملة، مع أخذ الموضوع بجدية، قلت له:

- أعطني ورقة وقلم ..

- إي تكرم عينك...

نادى على أخيه، وأشار له، جاء ومعه ورقة وقلم!

- اعطني اسمك الكامل... واسم أمك!

أجاب بلا أي تردد:

- اسمي: أحمد محمد عبد الملك، واسم أمي.....

ماذا لو؟

خرجت من ذلك المكان، وكأني خارج من حفرة مليئة بالطلاسم!

هل ما قاله حقيقي؟

هل هناك امرأة قد سحرته؟ ومن هي؟

و كيف سحرته؟!

وهل السحر حقيقة؟

ما أغباني!!

ولكن...

ماذا لو...؟!

٧

باب الوهم

سئاء الدم !

يتابع **نهر العاصي** حديثه الأسطوري عن البساتين التي يسقيها، على الضفة الأخرى من شارع الكورنيش، وستصدّقه في كل ما يقول!
سترى، تلك البساتين، ساحرة، عميقة، وكثيفة، وفي كثير من الأحيان: مخيفة!
نعم، **مخيفة...!**
فقد تناقل الناس أخبارًا لا أدري مدى صحتها، ولأن سكان هذه المدينة يعشقون ذلك النوع من الأحاديث، وخاصة عن تلك البساتين قرب باب النهر!
حيث يوجد طريق ترابي ضيق، يمر بين البساتين التابعة لبعض الأهالي، طريقٌ دائمًا ما يكون معتمًا ورطبًا، وتزداد عتمته ليلًا، إلا من بعض الأنوار الخافتة التي تصله من بعيد، أو من القمر، الذي يختلس النظر من بين أوراق الشجر الكثيفة!
بعض الشائعات التي تقول: إن هذا الطريق هو مسكن **للجن والشياطين!**
ومصدر تلك الشائعة، أن أصحاب البساتين، وأثناء مرورهم من هناك، يجدون آثارًا لدماء حديثة!
الأمر الذي يقشعرّ له الجلد، وتختلط فيه الأفكار

والهواجس، فلا يجد المارّون بدًا من الاعتراف بأن شيئًا ما يحدث!
حتى صاروا يطلقون على هذا الطريق اسمًا مرعبًا:
"زقاق الدم"
وقد يقلبون الزاي سينًا، والقاف همزة، فتُصبح الكلمة: **"سئاء الدم!"**
بعض الشجعان قرروا ذات ليلة أن يخوضوا في ذلك الزقاق، ليتحققوا من صحة تلك الروايات، وكم كان الأمر مضحكًا عندما اكتشفوا أن مروّجي الإشاعات، هم **أصحاب البساتين نفسهم!**

وذلك لردع المارّة، وخاصةً الشباب، الذين يتسللون ليلًا؛ فيسرقوا الثمار، ويخربوا الزروع، و يتحوّل المكان إلى مأوى للهاربين، والمتسكعين، ومتعاطي الممنوعات!

وبالطبع، لم تنجح الخطة!
فالمدمن، رغم كل ما فيه، لا يُرهبُه زقاقٌ مظلم... بل يهرب إليه، لعلّه يعثر هناك على نفسه التي أضاعها!

والجنّ — إن كنتم تتساءلون — فلا يُفضّل الأماكن المظلمة والرطبة بالضرورة، وفِكرة أنه **"يُمارس طقوسه هناك"** مجرد سيناريو من إنتاج الخيال الشعبي**!**
ثم إنه، كما نعلم جميعًا...

الجن لا يقتل البشر.

أليس كذلك؟

مجرّد قصة!

في تلك الثنائيات، يوقظني صوت **أنور**، وهو يحضر قهوته المعتادة على ذلك المكتب الكئيب، الذي صار يشبهني، أو أنني صرت أشبهه!

- ماذا يحصل معك يا فريد؟

أنت تزداد نحولًا، خمولًا وشرودًا،

هل أنت عاشق سري؟ متى ستخبرني؟

-عاشق سري؟

كانت تلك الكلمة المفتاح السحري لأفكاري الشاردة

- لا، أبداً يا أنور... إنه ضغط العمل!

لم يصدقني، لذلك قلت له بصوت خافت:

- ربما أنا مسحور!

يضحك، ثم يلاحظ جدية كلامي، فيقول:

- مسحور؟ هل تشعر بذلك حقًا؟

- ربما ..

- ما هي أعراض هذا السحر الذي تشعر به؟

- لا أدري... ولكن ما رأيك في السحر؟ هل هو

موجود حقًا؟

- موجود، نعم، إنه موجود بكل تأكيد يا فريد!

- كيف تتأكد من ذلك يا أنور؟

- أنت لا تؤمن بالسحر يا فريد؟

- لا أدري، ولكن أنا لم أشهد أية حالة من تلك الحالات، كي أقيمها، وأنت؟ هل شاهدت حالة ما؟

- نعم، نعم، إنه صديق مقرب لي.

- هل شاهدته؟

- لا، ولكنني أثق بكلامه!

- هل تثق بكلام رجل مريض؟ ربما كان موهومًا!

- لا مستحيل، السحر موجود، والرسول الكريم قد سحرته إمرأة يهودية!

- حقًا؟

- نعم، اقرأ القصة في صحيح البخاري!

- في صحيح البخاري؟

- نعم، أنا متأكد... لقد سحرته إحدى النساء اليهوديات، وقد مات وفيه أثر من سحرهن..

- لا أدري... يجب أن أتأكد من هذا الموضوع.

- تأكد كما يحلو لك... ولكن ماذا يخطر ببالك؟ لماذا كل هذه الأسئلة حول السحر؟

- لا شيء... أنا أعتقد أن السحر مجرد وهم !

- وهم؟

- نعم... هل تعرف قصة ابن سينا مع رجل الجرة؟

- لا، ما هي القصة؟

- **...يحكى** أن رجلاً كان يعاني من أنه لا يستطيع أن يقيم ظهره، وكان يخيل له أنه يحمل جرة على ظهره، ولا يقدر أن يستقيم حتى لا تقع الجرة**!**
وبقي على هذه الحال إلى أن أرسل أحد أقربائه للطبيب ابن سينا ليرى حالته.
فلما رآه، قال له: **"نعم، هناك جرة على ظهرك، وأنا سأحملها عنك وأكسرها"**
لما سمع الرجل، صاح بمن حوله:
"ألم أقل لكم... يوجد جرة على ظهري؟"
فقال له ابن سينا:
"تعال إلى غدًا ظهرًا، لكي أحمل عنك تلك الجرة"
وفي اليوم التالي، اتفق ابن سينا مع أحد أصدقائه بأن يرمي له جرة أمام قدمه، واتفقا على إشارة لفعل ذلك، وأثناء حضور ذلك الرجل المريض، أخذ ابن سينا يقرأ بعض القرآن، واضعًا يده على رأس ذلك الرجل، حتى حانت اللحظة المناسبة، فأشار ابن سينا للرجل المختبئ، فرمى الجرة بين قدم الرجل وقدمي ابن سينا**!**
فانصعق الرجل، وقد أخذت الفرحة تصعق قلبه ووجدانه، وأخذ يصيح:
"لقد انكسرت الجرة.. إنها هي.. لقد انكسرت!"

صار يحرك كتفيه وظهره بكامل حريته، شاكرًا ابن سينا، الطبيب الوحيد الذي صدق أوهامه... **وعالج وهمه، بالوهم!**

- ما هذه القصة يا فريد؟

- إنها قصة حقيقية، ويوجد الكثير مثلها في التراث العربي.

- أول مرة أسمع بمثل هذه القصة... ولكن ما علاقتها بالسحر؟

- لا شيء، لا شيء... إنها مجرد قصة !

هات.. خود!

تحت وطأة الليل.. في طريق ترابي مستتر بين جنتين، حيث يخلو المكان من كل شيء، عدا أصوات عجلات بعيدة، وتلك الموسيقى الصاخبة التي تحملها طيات الهواء بين الفينة والأخرى!
يستند شبحان على جدار من طين، ما يلبثان أن ينزلقا شيئًا فشيئًا، فيقرفصان، وبالتدريج تصبح جلستهما أشبه إلى الاستلقاء التام!
لم يكن يسمع من صوتها، إلا كلمتين:
"هات" ، "خود" وبالعكس!
لأكثر من نصف ساعة، وتلك اللفافة المهترئة تنتقل بين أصابعهما، وكل واحد منهما شاخص إلى أقرب نقطة عن عينيه، وأقصى نقطة في خياله الجامح!
ينادي أحدهما، بصوت أشبه بالهمس:
- خالد؟
- اي؟
- عم تشوف هاد الخط بالسما؟
- وينو يا أبو غالب؟
- هاد...
ويشير بيده إلى نقطة لا يراها سواه!

-أي.. شفته!

-هي أنا هلأ رسمتها، شوف! هلأ رح أرسم خط تاني..

ويشير بأصبعه إلى السماء، كأنه يرسم!

- شو عم تعمل هون يا أبو غالب؟

- كنت على القمر عم صيد سمك!

يضحك خالد ويقول:

- ليش؟ لتصيد سمك من على القمر؟ سمك بالعاصي خير من الله؟

- سمك العاصي ما منيح، كله كيماوي... سمك القمر كله ملائكة!

- أيوه.. معك حق!

- ليك.. شو رأيك بالأستاذ فريد؟

- والله منيح، الَّلاوي!

- يعني، يعني بيطلع بإيدو يساعدني؟

-والله مابعرف يا أبو غالب، بس أنت مابدك مساعدة، متل النمر!

بلهجته الساخرة:

- متل النمر!

هاد اللي طلع معك بآخر هالعمر!

يضحك ساخرًا:

- جبتها عالقافية، يعطيك العافية!

اي شو بدك يا أبو غالب، متل الأسد!

بهمس ضاحكًا:

-وطي صوتك، لا حدا يسمعنا! خليك على النمر.. أستر!

يتناول اللفافة منه، ليأخذ سحبة قوية تنهي ما تبقى من سيجارته الملفوفة بعناية:

- معك صاروخ تاني؟

- لا والله يا أبو غالب، نفَقنا اليوم!

المرشَّح الوحيد!

أحمد في العشرينيات من عمره، إلا أن الدهر عجنه جيدًا، حتى صار **"أبو غالب"**؛ بهيئته الجريئة، وملامحه الحادة، وعيناه المتوهجتان: شررًا تارة، وخيرًا مخلوطًا بشر تارًة أخرى!

وهذا ليس بالغريب، على طفل تربى في بيئة، مليئة بالعصابات والوحوش البشرية، حيث كان **جده** سيد الحي، يحل المشاكل ويفك المشنوق، ولا تمر لفافة حشيش إلا من خلاله!

ولم يقتصر هذا الأمر على الغرباء، بل أخص أهلَه وأصحابه من أولاده وأحفاده وكل عائلته..

كان يريد توريط الجميع على مبدأ: **ماحدا أحسن من حدا!**، وبهذه العقلية، سيطر على كل من حوله، حتى أُطلق عليه لقب **"البيك"**

أما أولاده، فلم يكن لهم مطمع في هذه **الرياسة**، لأنهم يعلمون ما لا يعلم غيرهم من مظاهر ضعف أبيهم المنزلية: المرض، الحزن، التعاسة، لحظات البكاء الجنونية، الاعترافات العلنية، والمصارحات المؤلمة المصاحبة لتأثير المخدرات!

هذا التشوش المختلط في فهم أبيهم وعلاقته بهم،

كان يبعدهم عنه أكثر فأكثر، حتى سلك كل واحد منهم منحى مختلفًا في حياته!

المرشح الوحيد الذي يملك نفس اسم جده، فهو **أحمد عبد الملك**، كانت هذه نقطة بداية قوية لتكوين شخصية هذا الحفيد المسكين!

وأقول **"المسكين"** لأن ما فرضته عليه هذه الكلمة، كان أكبر مما يستطيع حمله، ليس لثقلها وحسب، وإنما لما كان يعانيه من آثار الإدمان!

لظروف شخصية وعائلية، لم يكن الإدمان عنده يحمل معناه الحقيقي، بل كان مختلطًا في دمائه مع جيناته الوراثية المرضية، كانت على شكل **تفكك في شخصيته وتركيبها** لأكثر من مرة، تتراوح فترة الشخصية الجديدة والانتقال إلى أخرى، بحسب الصراعات الكامنة في داخله، والضرورات الملحة، لكي يبدو كاملاً، كمن يتخذ ذريعة في كل مرة يقع فيها: **أنتم السبب، لذلك سأتغير لأقهركم بأكثر من طريقة!**

كانت هذه سياسته الشخصية... وهذا كان إدمانه الحقيقي!

في نهاية كل يوم، يمضي إلى **"زقاق الدم"**،
بصحبة نديمه **خالد**..
حيث تتجمع الأفكار مرة أخرى لتولد من جديد،
على هيئة جديدة وشكل مختلف**!**

٨

باب المراوغة

بعد جوابه الأخير!

كانت النسمات العليلة، تصافح وجه النهر، أثناء جلوسنا على الأحجار المتراصفة، تقابلنا ناعورة الدهشة، عندما قال بحسرة:

- يعني قالك الشيخ إنو ما في عليي أي سحر!

- نعم، لقد بحث جيدًا من خلال اسمك واسم أمك!

- شو هاد اللي عم يصير معي، لكان؟

- ما الذي يحصل معك يا أبو غالب؟

- أفكار وأصوات براسي؟ أنا متأكد، إني مسحور، متل ما قال أبو عمر!

- من هي التي صنعت لك السحر؟

أجاب وكأنه يخفي سرًّا خطيرًا:

-أم خالد!

لم أستطع بلع ريقي، كان اسمها، وملامحها البريئة ترتسم في خاطري، تلك المرأة المسكينة، هذا

مستحيل تمامًا، استجمعت صوتي:
-أم خالد، خالد صديقك؟!

-إي.. أم خالد.. فطوم!

- فطوم!

- أي، أنا هيك بناديها!

- أنا مصدوم، كيف صنعت لك السحر، ولماذا؟

-القصة طويلة، كنت على علاقة معها، ولما عملتلي السحر، تركتها!

- دعني أفهم بشكل جيد.. أنت صديق خالد، وكنت على علاقة مع أمه، ولا أدري ماهي هذه العلاقة، ثم سحرتك؟ هل ما أقوله صحيح ؟

- إي بالضبط، طلب مني أبو عمر إني أتركها، بالبداية ما كان بيعرف مين هية، بس أنا حكيت لأهلي شو اللي صار، وطلبوا مني ابتعد عنها، كانت رح تصير مشكلة كبيرة، لولا تدخل جدي،

كانت انقتلت، حاليًا هي محتجزة بالبيت، ما بتطلع إلا للضرورة!

- وخالد؟

- خالد ممنوع إلتقي معاه، بس، متل ما بتعرف، خالد "جئر" وما حدا بيقدر يجبره على شي، عم نلتقي، بس مو متل قبل!

- أقصد، خالد يعلم أنك كنت على علاقة مع أمه؟

- لا، بيعرف إنها بتعزني متل ولادها، بس ما في مخلوق بيعرف بعلاقتنا وحبنا، وشو منحكي، أو شو منعمل!

- شو منعمل؟ يعني، متل شو كنتو تعملو؟

- لا أستاذ، لا يروح فكرك لبعيد، أكثر شي صار بينا، بوسة!

- بوسة! من امرأة متزوجة، أم صديقك؟ هل تعتبر هذا "شي قليل"!!

- هاد اللي صار أستاذ.. صارت وخلصت!

- ولماذا تسحرك، مع مابينكم من علاقة حب؟!

- مابعرف يا أستاذ، ما بعرف!

- والآن، بعد سنتين من انتهاء العلاقة، تعتقد أنك مازلت مسحورًا!

- أبو عمر قال إنه راح، بس لسه عم عاني!

- طيب، ممكن نحط احتمال بسيط لكلام أبو عمر!

- شو هو؟

- إنها ما تكون ساحرتك، مثلًا!

- لا مستحيل، مو قلتلك، أبو عمر ضل عم يقرأ عليي قرآن لحتى استفرغت!

- احتمال يكون الاستفراغ بسبب شيء مختلف!

- لا يا أستاذ، طيب شلون عرف إنها مرا كبيرة بالعمر!

- ما بعرف، ولكن ممكن تكون أنت حاكي ادام شي حدا بدون ما تنتبه!

- لا، مستحيل!

- طيب، ليش لساتك عم تعاني، معقول سنتين وأعراض السحر بعدها موجودة، و أنت بتصلي، وبتقرأ القرآن، ولو بشكل متقطع، المسحور ما بيقدر يعمل هيك شي، وأيضًا، بيصير معاه نوبات صرع وجنون، أنت عم يصير معك هيك شي!؟

أجاب بتردد:

- لا ..

لم تكن كلماتي التالية، دفاعًا عن أم خالد، بل كانت دفاعًا عن قناعتي بعدم وجود السحر والسحرة، على الأقل في عصرنا الحالي:

- ضع هذا الاحتمال في بالك، احتياطًا!
ربما تكون أم خالد بريئة من السحر، وهذا يعني أنك أنت وأبو عمر قد ظلمتموها!

- معقول أبو عمر عم يخدعني!؟

- هذا الاحتمال وارد؟ هل دفعت له المال؟

- أخد حق العسل والمي المقري عليه، ما بيهمني المصاري، بدي لاقي حل يعني برأيك فطوم ما إلها علاقة؟

- هذا احتمال وارد جدًا!

- يحرق ديبك يا أستاذ، معقول تكون فطوم بريئة؟

لن أنسى تلك الابتسامة التي اعتلت وجهه، عندما قال:

- والله لاصرخ قدام كل الناس، وقول: إنها بريئة!

- لا لا، نحن ما زلنا نفترض، ولكن دعنا نفكر بالأمر على أنه كما ذكرت لك!

وجهٌ أصفر!

- كلامك منطقي أستاذ، لأنو لساتني عم عاني، معناها أنا لا مسحور ولا شي!

- حدثني مرة أخرى، ما الذي تشعر به تمامًا؟

- مرات بشوف شخابيط بالهوا، بسمع كلام، كأن في حدا عم يحكي معي، مرات بشوف جدي بحس إنو لازم أضربه، ومرات بشوف أرقام وحروف ما إلها معنى... ما بعرف، شو يعني واحد واحد ثلاثة؟

أضاف، هازئًا:

- ومرات بسمع حدا عم يقلي: إنت نبي آخر الزمان!، بس وين، أنا شو بدو يوصلني للأنبياء، يعني لأن اسمي متل اسم النبي، معقول؟

فكرتُ قليلًا، لأستنتج ماذا يقصد، فقلت له:

- أها، تقصد أن عبد الله متل عبد الملك، وأحمد متل محمد..

- بتعرف شو، قبل سنتين شفت حالي كأني النبي

يوسف الصديق، والله يا أستاذ، صرت احكي متله، حتى لون وجهي صار أصفر، متل لون وجهه!

- أصفر؟؟ كيف علمت أن لون وجهه أصفر!؟

- هيك شفتو بالمسلسل تبع يوزرسيف!
صرت حس إنو العالم كله لازم تركعلي، عملت خلوة بالبيت ثلاثة أيام، بعدها صرت شوف الدنيا غير شي، كلامي وحديثي كان كلو رايق، وكأني يوسف عليه السلام!

المهدي المنتظر!

أثناء حديثه خطرت في بالي فكرة مجنونة، تبعتُ فيها حدسي القوي، الذي لا يخطئ في مثل هذه الأوقات:

- اسمع يا أبو غالب..

- إي، معك استاذ!

عندما نطقت تلك الكلمات، كانت أشد لحظة جنونية أمر بها في حياتي:

- في احتمال كبير، إنك تكون المهدي المنتظر!

كصاعقة اخترقت أذنيه، أثناء ذلك مرّ نسيم قوي حرّك الماء بشدة أكثر من المعتاد، فتناثر بعض الرذاذ علينا، توهجت عيناه، وكأنه كان ينتظر أحدًا ما، ليقول له مثل هذا الكلام، يردد مع نفسه، بصوت خافت، تشوبه فرحة عارمة:

- المهدي المنتظر؟ معقول يا أستاذ؟

- نعم، ولمَ لا؟ اسمك مثل اسمه، وأنت شاب رائع، فيك كل مواصفات الكمال، لعل الله سيصلحك بين ليلة وضحاها، وهذه كلها من صفات المهدي المنتظر!

- صحيح... بس ما بعرف! بتحكي عن جد؟

- كل الجد!

كنت أتأمل ردّات فعله، بعد أن توهجت أفكاري، واشتعلت حواسي، لهذه الفكرة المجنونة، كنتُ كمن أصاب الهدف بضربة قاضية، بضحكة ماكرة، قلت بيني وبين نفسي:

ها هو الآن يقع ضحية أفكاره، سأسحب البساط من تحته، لأوقعه في أول طريق للعلاج!

فطوم!

قبل سنتين...تقريبًا

كان هناك حلم لامرأة عاطلة عن الحب، توقف حبلها السري عند مفترق الولد الثاني، كانت مجرد آلة للإنجاب، الذي كان وسيلة إلهاء عمّا تشعر به أيّة امرأة لم تحظَ في زواجها بفارس أحلامها!

أقصى ما تحقّق من حلمها هو **طبل متحرّك بعرج طفيف**، واكتساح مخيف للعواطف بذريعة **رجولية مصطنعة!**، لم يكن هناك أي شيء يمنعها من إكمال حلمها في خيالها، سارحة وكأنّها أميرة ما بعد الساعة الثانية عشر ليلًا، حيث تأتيها ساحرة عرجاء، وترمي لها **قرعة**، ولكن لا لتحوّلها إلى عربة فاخرة، وإنما إلى **مربى القرع**، الذي يكتسح البيوت مع حلول الخريف!

كلّ شيء تحول إلى الأصفر: أوراق الشجر المترامية، الغيوم الكالحة، بشرتها الشاحبة!

يتهادى إلى سمعها من سطح البيت، صيحات لاعبي الورق، وهم يهمّون أن يقتتلوا بسبب الآص الديناري، وأحيانًا بسبب بنت الكوبة!

لا عجب، فالأولاد يكبرون، وأصبحت لهم حياتهم

السرية ومشاكلهم الشخصية.
كانت تسمح لكل شيء أن يمر من خلالها، وكأنها جثّة هامدة، ما تحتاج إليه الأن، مجسّ طبيب يشعرها كل حين بالأنين، ذلك الأنين الذي يجعلها تشعر أنها مازالت على قيد الحياة!
يأتيها صوت ابنها من السطح:
- أمي... أمي!

- إي... خالد!

- ساويلنا شاي... وإذا في كعك حطّي معاه!

- ماشي..
بعد برهة، نزل خالد ليدخل إلى الحمام، فصعدتْ إلى السطح لتتأكد من عدد الموجودين، فقد سمعت أصوات أقدامهم ينزلون مع نزول خالد، ولغاية في نفس يعقوب:
- أهلين أبو غالب!

- أهلين، وجهك ولا القمر! ويضيف:
- أحلى فطوم بالعالم... بس ما تكوني ادايقتي آخر مرّة!

أبعدت عيناها المعلّقتين بعينيه، كمن يهرب من رصاصة، تلك الليلة، من أجمل ليالي منتصف عمر زواجها!
الارتعادة التي خلفها سؤاله، لم تفقدها رباطة جأشها، فقالت:
- أنا هنا معك... ولن أتركك أبدًا، حتى لو كل العالم اتخلوا عنك!

- إنتي أمي وكل شي بحياتي... وأنا معك للموت!
صمت لحظة ثم أضاف:
- بكرا رح جبلك كرت وحدات حتى تعبي تلفونك، بحب أسمع صوتك على طول!

- لا يا أبو غالب، لا تعذب حالك، ما بدي منك شي!

- مو على كيفك...
بكرا ببعتلك ياه مع خالد، على أساس إنتي وصيتيني عليه!

- طيب.. متل ما بدك!
ذلك الرضوخ الناعم، الذي تمنحه المرأة لمن تحب، ليس خضوعًا، بل شكلٌ آخر من الاحتضان، تلك

اللحظة التي تتحوّل فيها، لا إلى تابعة، بل إلى أميرة مخملية متوجة بالحب!
لم تكن علاقة عابرة، ولم تكن نزوة، بل كانت رحلة نفسية عميقة بين مرآتين معكوسَتين، لا إلى الخارج، بل إلى الداخل، حيث يرى كلّ منهما نفسه من الداخل، **ويُلقي ما يرى من ظلال أعماقه إلى الخارج، ليتلقّاها الآخر، بما يراه في نفسه!**
فتصادفَ أن التقت رؤيتهما بحبال رفيعة، صَنَعتْ حبًّا على شكل قوس قزح، لم يلبث أن اختفى بعد سطوع قويّ **لشمس الحقيقة!**

كان كل ما حصل في تلك الليلة، مجرد قُبلة!
وما بعد القبلة مختلف تمامًا عمّا قبلها!

٩

باب العودة

شوكة!

كان الطريق إلى بيت أم خالد، مبللًا بالفرحة، كأن الرصيف نفسه قد غسل قلبه من الهمّ!
يتوسطنا خالد، يسير أمامنا بخطوة، كمن نال نصرًا صغيرًا، يلمع في عينيه شيء من الفخر، هيبة هادئة، وفرح مكتوم يحتبس في صدره!
شددتُ عليه الأمر في عدم إخبار أحد، وأننا سنخبر الجميع في الوقت المناسب.
ابتداءً من **قهوة المأمورية**، التي أصبحت مقرًا رئيسيًا لتجمعاتنا ومخططاتنا، مع أبي غالب، الذي كان يسير بثقلٍ ظاهر، يتقلب وجهه بين **ألم قديم** وأمل وليد، بين نشوة انتصار مُرّ، وكآبة المصير،بين ظالم ومظلوم، بين ضحيتين وجانٍ واحد:

- أبو عمر، لقد ظلم فطوم المسكينة، وظلمني!

يتمتم:

- والله لأقتله، قال:في شوكة بدّو ياها من عندي!

قلت له مطمئنًا:

- لاتقلق، سنتعامل مع أبو عمر لاحقًا.

لم يكن يُصغي لكلامي، كان يغلي بداخله، فبادرته

باقتراح كي أطفئ ناره:

- ما رأيك أن تزوره غدًا، ومعك شوكة كبيرة حديدية؟

وتقول له:

- هذه هي الشوكة، إنها لك الآن، ما رأيك؟ ولكن، إياك أن تغرسها في صدره!

بعد سماعه لهذا الاقتراح المجنون، لم يتوقف عن الضحك، قائلًا:

- والله يا أستاذ... إنت شيطان رائع!

- بإمكانك اعتباري منذ اليوم، مساعدك الشخصي.

الأصلي!

توقفتُ لحظة، سألته بوضوح:

- سؤال واحد، وجواب صريح: هل تجاوز الأمر القبلة؟

هزّ رأسه بسرعة:

- أنا كنت دائمًا بروح بسهر عندهم بالبيت، وفي مرة من المرات كنا عم نحكي عالشغل والمشاكل العائلية، نزل خالد ليشتري علبة دخان، حكينا شوي أنا و فطوم، ولما وقفت بدي روح عالبيت،

هي وقفت معي، وفجأة لقيت حالي عم احضنها، وبعدين ما بعرف، صار فمي بفمها!

تابع، بصوتٍ خافت:

- ابتعدنا مباشرة، لما سمعنا صوت أقدام خالد قريبة من السطح!

سألته بهدوء:

- ثم، ماذا حصل بعد ذلك؟

تنهد، وقال:

- ولا شي.. علاقتنا قويت أكثر، بس ما صار متل هالموقف مرة تانية، كانت تحكيلي عن علاقتها بزوجها وأولادها، وعن تقصير زوجها في كل نواحي البيت، وكيف أنها صامدة في وجه الحياة لوحدها!

- وماذا بعد؟

- كنت أرسل لها الهدايا: هدايا عيد الأم، وفي عيد ميلادها، وحدات رصيد للهاتف، أتواصل معها باستمرار، على مدار الأربع وعشرين ساعة، أنام على صوتها وأصحى على صوتها!

سألته متعجبًا:

- وكيف كانت تصلها تلك الهدايا!؟

- أكيد، عن طريق خالد!

قلت بدهشة:

- أَيَعني أنك كنت على علاقة بأمه، وهو يعلم؟!

- يعلم أني أقدّرها، متل أمي يعني!

- وزوجها؟ كان يعلم بالأمر؟

- اي، بيعرف، بس لا تنسى فارق العمر، أبوه صديق أبي، وأمه صديقة أمي، وأنا صديق خالد فهي علاقة عائلية، شي طبيعي، الكل بيعرف!

- طبيعي يا أبا خالد؟ الكلام لأربع وعشرين ساعة؟ الهدايا؟

- ما حدا بيعرف انو في علاقة حب أو أي شي تاني، كنت أحكي للكل إنها أطهر إمرأة على وجه الأرض، وساعدتها بكتير أمور، مصروف البيت، وحتى خالد، لما كان رح يموت، كنت واقف معاهم!

- على وشك الموت؟ ليش؟

- بسبب التعاطي بكميات كبيرة، وقع على الأرض، وصار يطلع من تمه زبد أبيض، اتصلت فيني، أخدت سيارة جدي، رحنا على المستشفى، وعملنا له غسيل معدة!

- المسكين، ولماذا يتعاطى بهذه الكمية الكبيرة؟

- الله يعينو، مافي لا شغل ولا وظيفة، وضعهم بالبيت ما منيح، وخالد من نوع اللي آخد القصة على أنها مرجلة!

- اممم، أنت ما زلت على وعدك لي، صح؟

- أكيد يا أستاذ، كلام رجال، وإن شاء الله رح كون أد كلمتي!

- وخالد؟

- ما بعرف، يناديه من بعيد:
- خالد!
إنت شو؟

- أنا الأصلي، على شو يا أبو غالب؟
يضحك من حماسه:
- على راسي الأصلي، عم يقول الأستاذ: إنك لازم تترك الحشيش!

- أكيد يا معلم... منتركها بس بدك!
كنت أراقب حديثهما، الذي لا يخلو من لمحات سرية بين الجدّ والهزل!

رمز الهاتف!

أثناء سيرنا، كان الناس يحيّون أبا خالد بإجلالٍ واضح، ينادونه **بالبيك**، وكأنه أحد الملوك العظام!
تساءلت مع نفسي: هل يعلم أهل الحي، بقصتهما؟ حاولت استعادة آخر لقاء لي معها في البيت، هل حقًا هي مسجونة في بيتها؟ أم أنه سجن معنوي، محكم الأبواب، وهل يمكن لامرأة مثلها أن تكون ساحرة!
كنا على وشك أن ندخل بيتها، تذكرت أمرًا مهمًا، فسألته:
- هل كتبتَ كل شيء كما اتفقنا؟

هزّ رأسه:

- نعم، كتبت كل شي، جميع الأوراق معي في السيارة.

صعدنا الدرج، وعلى غير العادة، فلم نصادف جدة خالد، همست له:

- خالد، أنت أخبرتَ أمك بأننا سنأتي، أليس كذلك!؟

ردّ وهو يمضغ لامبالاته:

- لا، عادي، أهلا وسهلا فيكم، البيت بيتكم!

- كيف عادي! اسبقنا، وبلغها!

- طيب، رح اطلع قبلكم، انتو اطلعوعادي !

وصلنا الطابق العلوي، كانت بانتظارنا، قالت بلهفة صادقة:

- أهلًا وسهلًا بالأستاذ... نوّرت!

ثم التفتت نحو أبو غالب:

- شلونك أبو غالب؟ زمان والله!

ردّ بتوتر خفيف:

- الله يسلمك خالتي أم خالد... شلونك إن شاء الله بخير؟

- الحمد لله تمام... إنت كيفك؟ كيف أبوك؟ أمك؟ أخواتك؟

وقبل أن نستكمل أي حديث، تعالت أصوات الأقدام على الدرج، كانت أكثر من امرأة، ومعهن بنتان صغيرتان، يبدو أنهم من الجيران، أولئك الذين اعتادوا السهر في بيت أم خالد.

أوحيتُ لأبي غالب أن **نؤجل الموضوع**، ففهم الإشارة، لكنه لم يكن من أولئك الذين تستوقفهم الظروف، اقترب منها، وهمس:

- في موضوع ضروري نحكي فيه، بس مو هلّق، منتواصل بعدين، رقمك لسه متل ما هو؟

ضحكت بخفة:

-أكيد، ورمز التلفون، على أول حرف من اسمك!

ضحك، وتمتم:

- فطوم... إنتِ رهيبة، خلص، منتواصل بعدين!

استأذنا للخروج، بخُطى مثقلة بخيبة مؤقتة!

لم نُنجز شيئًا، سوى إعادة فتح بابٍ كان مواربًا.

المنتصر الوحيد أبو غالب، فقد استعاد قلب الفطوم، التي، **لم تفقده يومًا واحدًا**، كانت تضخّ أمومة، وبإمكانها أن تفعل أي شيء، كي يشعر ذلك **النبي البائس** أنّه بخير!

موتٌ.. يشهد على الحياة!

تُعتَبر قلعة حماة، الموقع القديم لمدينة حماة، والذي أُجريت فيه مؤخرًا، الكثير من حملات التنقيب، أسفر عنها، أن المدينة تعود بجذورها التاريخية إلى الألف الخامس قبل الميلاد، عندما كانت عاصمة مملكة **حماث الآرامية!**

تلك التلة، التي لا يتجاوز ارتفاعها الـثلاثين مترًا، ومحيط قطرها التسعمائة مترًا، تغطيها الآن طبقة صخرية، تراكمت عليها الأتربة، فتحولت مع مرور الوقت إلى غطاء عشبي بديع، يتخلله بعض النباتات الزهرية، بالإضافة إلى الأشجار المتناثرة من **سرو وصنوبر** وغيرها.

عندما تصعد ذلك التل، تجد في محيطه الخارجي، **مطاعم صغيرة متفرقة**، في وسطها ساحة ترابية، مليئة بالألعاب المتهالكة، مطلية باللون الأحمر والأزرق. وعلى أطرافها، تتوزع الكثير من الكراسي الخشبية والحجرية!

وسط القلعة الداخلي، توجد **حفرة ضخمة** مليئة بالأتربة والصخور الأثرية، ضُرِبَ على أطرافها الخارجية بسياج حديدي، يُقال أن هذه الحفرة العميقة، كانت **مقبرة قديمة**، وقد يكون هذا صحيحاً، فتلك **التوابيت الحجرية الضخمة** تشهد على ذلك، من خلال الكتابات القديمة، والرسومات المنحوتة بحرفية عالية، والتي تعود – على ما يُقال – إلى **العصر الآرامي!**

إنه لَمِنَ المضحك حقاً،

أن يشهد الموت، على وجود الحياة!

١٠

باب الاعتراف

أعطني قداحة!

لدقائق، كنت أقلب تلك الأوراق التي استلمتها من أبو غالب، الجالس قربي في السيارة، أحاول أن أقرأ السطور، وما تحت السطور!
الكثير من الجمل متكررة بطريقة عبثية، كيفما قلّبت الكلمات والحروف، وتلك التكرارات، باحثًا عن نمطٍ معيّن، دون جدوى!
سألته، متعجبًا:
- هل كتبتها كلها دفعة واحدة؟
أجاب نافيًا:
- أحيانًا... أشار إلى بعض الكلمات المتكررة وقال:
- انظر، هون، بنفس الوقت أجوا على راسي ورا بعض، ليش هيك عم يصير معي برأيك؟
أفرك ذقني بأصابعي، متخذًا هيئة المفكر الخبير:
- يبدو لي أن هذه الكتابات من وساوس الشيطان، ولكن لا تقلق، دومًا هناك مخرج من هذه الأمور!
نظرت إليه بنظرة أكثر جدية، قائلًا:
- انزل من السيارة!

قال متفاجئًا:

- شو؟ خير؟ شو صار؟ بنزل هلّق يعني؟

تراجعتُ مفكرًا:

- لحظة، خلي نمشي شوي، لمكان بعيد عن زحمة الناس!

كنا قريبين من مقهى المأمورية، فقلت له:

- هيا بنا إلى القلعة،هل أنت ملتزم بالعمل الآن؟

أجاب نافيًا:

- لا، أخي موجود، أديش بدنا وقت؟

- نصف ساعة، تقريبًا!

- إي كتير منيح، يلا لشوف وين بدك توصلنا!

قالها بلهجته الساخرة، ولكنه ارتدّ فجأة كمن يراقب نفسه بحذر!

مشينا بالسيارة، ثم نزلنا في بدايتها، لنكمل صعودنا مشيًا، أخرجت الأوراق، ثم بحثت عن مكان خالٍ من الناس، همست له:

- أعطني قدّاحتك !

قال مازحًا:

- شو استاذ، بدك تدخّن؟ جايبني لهون حتى تشرب سيجارة؟

استلمت القداحة منه، مسايرًا لمزاجه الرائق:
- لا... أريد أن أشعل بعض الأوراق!
أخرجت القصاصات التي أعطاني إياها، وقلت له:
- الأفضل أن تبدأ أنت!

- ماذا أفعل؟

- اقرأها، كلمة كلمة، وعندما تنتهي من كل قصاصة، أشعلها وأحرقها، مخاطبًا الشيطان في نفسك: ها أنا الآن أحرقك، أنت ووسوساتك!
وقف مذهولًا من هذه الطريقة الغريبة، لكن ذلك لم يمنعه من مسايرتي، أخذ الأوراق، وبدأ بقراءتها، الواحدة تلو الأخرى، وهو يضحك ويهز رأسه:
- شو هالكتابة هاي؟الله يلعنك يا شيطان، الله يلعنك!
يشعلها الواحدة تلو الأخرى، إلى أن انتهى منها جميعًا، ثم نهض، ينفض ما علق من رماد على بنطاله، سألته:
- ماذا تشعر الآن؟
نظر إليّ، وقد تغيّرت لهجته إلى لهجة ساخرة يقلّد تلك الشخصية نفسها:
- ماشي الحال، ماشي، حرقنا الشيطان وخلصنا !

ثم عاد إلى لهجته الطبيعية:

- يعني أستاذ، نحن هلّق خلصنا؟ ما عاد ترجعلي هاي الأفكار؟

أجبته بصدق:

- ربما تعود، لكن تذكّر ما فعلناه اليوم، وعندما تراودك أي فكرة من نفس هذا النوع، قل لنفسك: "الله يلعنك يا شيطان، روح من هون، أحسن ما أحرقك عالقلعة"

أولاد الحرام!

أثناء نزوله من السيارة مودّعًا، **رنّ هاتفه،** كنت على وشك المغادرة، عندما لوّح بيده متعجّلًا:

- أستاذ، أستاذ !

توقّفت مستجيبًا له:

- ماذا؟

بصوت مخضوض:

- خالد بالمشفى!

- أين؟ في أي مشفى؟

كان يستمع للهاتف، ويشير بيده إليّ أن أتوقّف، أشرت له بيدي:

- اصعد!

عندما صعد، أخبرني:

- في مشفى الحكمة!

سألته مستفهمًا:

- من المتّصل؟

فأجاب، بنبرة لا تخلو من السعادة:

- الفطوم... أم خالد!

متعجبًا:

- لماذا هو في المشفى؟ ما الذي حصل معه؟

- ما كتير فهمت، قالت لي: متل هديك المرة!

- يعني، بسبب الحشيش!

- والله ما بعرف، امشي، نروح نشوف شو القصة؟

- والمقهى؟ أيمكنك الاعتماد على وليد؟

- اي عادي، رح اتصل عليه، وخبره إني رح اتأخر!

أثناء اتصاله، فكرة مجنونة خطرت في بالي:
"ماذا لو كان هذا اللقاء مدبّرًا من القدر؟ أن يجتمع أبو غالب مع "الفطوم" في مثل هذه الظروف؟ "
كانت تطل بضحكتها، من شرفة الطابق الثاني، لوّحت لنا، صارخة برقم الغرفة:
- قولولهم الغرفة رقم ٢٤ !
أشار لها أبو غالب، ثم ضحك، قائلًا:
- الفطوم، لا تتغيّر. ما في أحنّ وأطيب من قلبها. الله يلعنك يا أبو عمر!
تساءلت معه:
- هل مازلت متعلقًا بها؟ أو تحبها؟
أجاب نافيًا منكرًا:
- الفطوم متل أمي وأحسن!
قبل أن يكمل حديثه، واجهنا والد خالد نازلًا من الدرج، لاهثًا بعرجته:
- أهلًا وسهلًا بالشباب!
ثم سلّم عليّ سلامًا خاصًا:
-أهلين أستاذ، شلونك؟ طمّنّي عنك، شايف شو عم يصير مع خالد؟

- خير يا عمي، ما الذي حصل معه؟

أجاب بعد أن جلس على كرسي في الممر، نافضًا عرقه باصبع يده:

- الله يلعن اللي كان السبب، كلّو من ورا ولاد الحرام!

تابعته، لأستدرجه أكثر:

- من هم أولاد الحرام؟

يضرب يديه مع بعضهما:

- صار يلبِّط بالأرض فجأة، ويطلع من تمه زبد أبيض، من السم اللي عم يتعاطاه، الله يلعنهم كلاب، ولادين حرام!

أردت أن أستفهم أكثر، إلا أن أبا غالب قاطعني، بغمزي من يدي، فانتبهت لأم خالد القادمة:

- أهلًا وسهلًا بالشباب، أهلين أبو غالب... كيفك؟ كيف العيلة؟ إن شاء الله الجميع بخير!

ثم بادرتني قبل أن يجيبها:

- كيفك أستاذ؟ إن شاء الله بخير؟ يا عيب الشوم، عم نعذبك معنا. طمّني عنك!

وقبل أن أجيبها، كانت تلتفت إلى زوجها:

- شو قالك الدكتور؟

- ما قال شي... هي كلو من ورا راسك!

- شو دخلني أنا؟!

شوف ولاد الحرام اللي علّقوه بهالشغلة!

التفتتْ إلي لتكمل حديثها:

- يا أستاذ، كل إنسان عنده عقل، وهو بيختار الطريق الصح من الغلط. وأديش حذرناه لخالد، بس ما كان يرد على حدا!

أجبتها مطمئنًا:

- الله يهديه ويصلح حاله!

كان أبو غالب قد تقدّم إلى الغرفة وحده، ليطمئن على صديقه، وليهرب من مواجهة مباشرة مع أبو خالد والفطوم، ضحكاتهما تتعالى بقوة، فاستأذنت أباه وأمه، لأدخل معه.

كان خالد ملقىً على سرير أبيض، رابضٌ فيه مثل أسد، قناة السيروم المربوطة إلى يده، تزجره عن الحركة!

- الحمد لله على السلامة، خالد!

- يا هلا وسهلا أستاذ، يا عيب الشوم، ما قادر وقف وسلّم عليك!

- ولا يهمك، المهم صحتك وعافيتك!

قالها وهو ينظر إلى أبو غالب، فيتركركران،

بهمسات لا يفهمها أحد سواهما، أردت مشاركتهما، بصفتي الناصح والأستاذ، مسايرًا لهما فيما يعتقداننني فيه:

- والله يا خالد، لازم تدير بالك على حالك وعلى صحتك، ما بكفي أمك وأبوك أديش عم يعانوا لحتى تكبر وتصير رجال، وأنت هيك عم تهدم حياتك بإيدك. كرمال شو؟ كرمال سحبة حشيش؟

خفضت صوتي عند آخر جملة!

أجاب، بنبرة حزينة:

- معك حق، سوسة ما عم أقدر وقفها!

أضاف أبو غالب:

- اسمحلي استاذ، الحشيشة ما بتساوي هيك، بس أبو الخِل بيكون ساحب أكثر من نوع بنفس الوقت!

ثم توجه إلى خالد بالكلام:

- إنت صح راسك تقيل، بس ما بيصير تخلط وتخبص! يعني الشغلة مو للأكل، للمزاج!

- والله معك حق، يمكن كنت جوعان!

ثم أطلق ضحكته الجنونية، وساد جو من الضحك، عندما دخلت أمه، فقالت:

-الله يديم البسط والسعادة عليكم، ويبعد عنكم أولاد الحرام!

أجبتها وحدي:

-آمين !

الغرفة ٢٤!

نظرات غائمة، بين عاشقين قديمين، لمحتهما عن كثب، وقد انسحبا قرب شباك الغرفة يتهامسان، فلم أؤجل خطوتي الجريئة، للذهاب نحوهما، قائلًا:

- كيف الحال؟ هل كل شيء على ما يرام؟

أجاب أبو غالب:

- والله الأستاذ فريد ما في منو!

أجابته، ناظرة إلي:

- والنعم منك أستاذ، أخلاق وعلم وأدب!

- الله يسلمك، خالتي أم خالد، وإن شاء الله بتشوفي خالد بأعلى المراتب.

تابع أبو غالب، وكان يخاطب أم خالد:

- الأستاذ بيعرف كل شي، هو اللي قال لي إني ما مسحور، وما معقول تسحرك أم خالد!

كنت مصدوماً أمام تتابع كلماته:

- أبو عمر ضل يلعب براسي لحتى أنا صدقت، بس والله ما رح أتركه بحاله، إلا ما أعطيه الشوكة!

نظر إليّ ضاحكاً:

- مو هيك، لازم نعطيه الشوكة، بس الله أعلم وين!

أجبته:

- أكيد، أعطي ياها بإيده وبدون أي مشاكل. نحنا بدنا نطوي الماضي ونبلّش من جديد!

علّقت مؤيدًة:

- إي والله أستاذ، ما في أبشع من الماضي. أنا كتير تعذبت من ورا هي القصة، الله على الظالم!

أبو غالب متل خالد، شلون بدي اسحره؟!

يا ريت أعرف بالسحر، لكانت حالتي غير هيك، الله المستعان!

ثم أردفت بدموعها:

- كل هالسنين، وأنا عم ادعي الله ياخدلي حقي، وإن شاء الله اجى هاد اليوم!

أجبتها، مخففًا عنها:

- الله أرسلني حتى آخدلك حقك، وهي أبو غالب قدامك، حتى يمحي الماضي والأمور اللي كانت عم تنحكى عليكي، صح يا أبو غالب؟

أجاب، جازمًا:

- إي والله أستاذ، وأنا، قدام الأستاذ وقدام كل العالم، بعتذر منك ع كل شي، وأنا جاهز لأي شي بخدمتك. منرجع متل أول وأحسن!

أوقفته:

- لا، شو ترجعوا متل أول، خلي القصة بيناتنا حالياً، يعني بس خالد وأبو خالد والمقرّبين. بعدين منرتّب كيف بدنا نعلن. المهم حالياً وجود أبو غالب معكم، هو ضربة قوية لكل الكلام اللي كان ينقال!

- أكيد أستاذ... أنا هلّئ بعتذر كمان ادام عمي أبو خالد!

- إي والله، يا أبو غالب، بتكون عملت اللازم، وزيادة!

دموع أم خالد تنهمر بغزارة، فأسكتتها بسيجارة متوترة، قلتُ لها:

- لا يجوز التدخين في المشفى!

قالت، بلا مبالاة:

- بس سحبتين وبكبا لبرا، أنا عم طالع الدخان من الشباك!

نظرت إلى أبو غالب، الذي كان قد صوّب نظره نحو خالد، قائلاً له:

- أبو الخِل، أخوي الغالي، وهي صلحنا كل شي مع الفطوم!

- إي، عال العال!

همستُ لأبي خالد:

- شو هي الفطوم؟

أجاب مازحًا:

- لك إي، كل الحارة بتناديها فطوم، هي اللي قدامك مختارة الحارة!

أجابت:

- الله يعزك ويديمك لأهلك، أبو غالب متل أولادي وأعز إن شاء الله، والله يقطع اللي قطعنا!

في هذه النقطة، كان هناك سؤال فظيع يحوم فوق رأسي، لا أدري كيف أصوغه لهما، و لأني لم أستطع البوح به، تركته عالقًا في دوامة أفكاري!

الآن هي الفرصة الأمثل لأمر آخر!

استجداء أخير !

أسرعت إلى خالد، لأهمس له، مقاطعًا ضحكاته مع أبو غالب:

- هل أخبرت أمك وأبوك بشأن الجامعة؟

فتح عينيه بذهول:

- أوعاك أستاذ!

- يجب عليك ذلك يا خالد، الآن أفضل فرصة، الجميع يعلم بمشاكلك، ولن تضيف لهم هذه المشكلة أمرًا خطيرًا!

- لا أستاذ، ما بدي وجع راسي!

- لا يوجد أي داعٍ لتكمل في كذبتك، أخبرهم الآن!

- والله ما بعرف، شو رأيك أبو غالب؟ أجاب وهو ينظر إليه، من بعيد. قاطعت استجدائه:

- أبو غالب لن يتحمل عنك أي ذنب، أنت المسؤول الوحيد عن حياتك!

- والله يا أستاذ، اعذرني، بس غلط، رح يزيد عليهم الهم والغم!

- لا، لا أعتقد ذلك، هل تظن أن أباك وأمك لا يعرفان، أو أنهما لا يشكان بك؟

- لا، أستاذ، ما في هيك شي!

- حقًا، أين الكتب، أين تحضيرك ودراستك، أنت طوال الوقت خارج المنزل، هل تعتقد بأن أمك لم تلاحظ ذلك؟ أين سجل الدرجات لنجاحك كل عام؟

- لا تخاف عليّ، أنا مدبرها!

- اسمع، في النهاية سيعلمون، والآن أفضل من الغد.

انضم إلينا أبو غالب، وبدأ يهزّ برأسه، قال بجدّية:

- معاه حق الأستاذ !

فاستجاب له خالد تمامًا، ونادى أمّه الشاردة:

- أمي، بدي قلك شغلة بتخص دراستي!

- إي، أمي، شو؟ بدك تترك الجامعة؟ والله كنت عارفة!

ضحك قليلًا، ثم تابع:

- شو بدي أترك؟ ليش أنا مبلّش أصلًا، حتى

أترك!؟

مثل صاعقة، لا، بل مثل برق، كانت أمام سرير خالد، تشدّ على رقبته:

- والله بخنقك! ولا خالد، شو هالكلام؟

- شيلي إيدك، رح تموتيني!

- والله بموتك، أهون عليَّ من هالكلام!

- إي والله يا أمي، ما قدرت كمل بالجامعة، وحاليًا أنا عم روح عالشام، اشتغل بمكتب!

- لك شو هالحكي، والدراسة؟ والكتب؟ والملخصات؟ شو كنت عم تعمل بالشام؟ الله يلعنك يا كلب!

- ولا شي،هي خبرتك، حتى يصير عندك علم!

- ما شاء الله عليك مستعجل، صارلك أربع سنين عم تروح وترجع عالشام، تيتي تي، متل ما رحتي، متل ما إجيتي،والشغل اللي وعدك فيه الأستاذ؟! على أساس ابني رح يصير أكبر صحفي بالبلد؟ الله ينزع مساك متل ما نزعت مساي!

حاولتُ تخفيف حدة الموقف، فغمزته ليتركني أتكلم:

- مشان الشغل، أنا رح رتّب له وظيفة معي بالجريدة، بس بدي منه شهادة تزكية من مكتب التصوير يلي عم يشتغل فيه بالشام!

بنظرات مراوغة، ضحك بخفة:

- أنو مكتب تصوير، أستاذ؟

كصاعقة.. لقد كان يكذب علي أيضًا!!

- بأي مكتب تعمل إذن؟

- بالمكتب العقاري.

- مكتب عقاري؟! لك شلوّن؟! مو وعدتني تجيب شهادة تزكية؟

قاطعني:

- إي، اشتغلت فترة، بس اتقاتلت معاهم، وتركت، وبعدها اشتغلت بمكتب عقاري..

إنت طلبت مني أحكي الصدق، وهي الحقيقة!

تمالكتُ نفسي:

- مو مشكلة، المهم إنك عم تشتغل، ومنشوف كيف نظبط الوظيفة.

ثم أضاف:

- المكتب عنده بيوت للإيجار أو للبيع، ومرّات بقعد فيهم بدون أجار، ومرّات بدفع شهر أو شهرين، بينما يفضى شي بيت، بنتقل عليه ببلاش!

كنت أهز رأسي مندهشًا من تلك التفاصيل المشوشة، بينما انسحبت أمّه إلى النافذة مجددًا، تقابل أبو غالب الواقف هناك!

عرجةٌ.. ووصيَّة!

وقفتُ مصدومًا، أثناء دخول الممرضة التي صارت تفتح الشباك، وتنفض الدخان من الغرفة، قائلة:

- لا يجوز التدخين هنا، رجاءً !

فأجابها أبو غالب، دون أن يرفع نظره:

- ما في حدا عم يدخن... هي الريحة من برا !

ثم أغلق الشباك، وقال بابتسامة مصطنعة:

- شايفة؟ راحت الريحة !

ردّت الممرضة، ببرودٍ مهنيّ:

- مو مهم من وين، المهم ممنوع التدخين. هاد مشفى، مو قهوة!

تدخلت أم خالد معتذرة بابتسامة باهتة:

- ولا يهمك، حبيبتي، أشكرك، إمتى فينا نطالع خالد؟

أجابت وهي تهمُّ بالخروج:

- ما بعرف. لحتى يجي الدكتور ويقيّم حالته. ومنشوف إذا بتقدروا تطالعوه اليوم أو لا.

صاح خالد، بنبرة ملولة:

- ما فيني شي، خلص، صرت منيح!

كانت على وشك إغلاق الباب عند خروجها، إلا أن **أبا خالد** قد دخل، ولم يغلق الباب تمامًا، وكأنه على استعداد للخروج في أية لحظة، وقف أمام السرير:

- شو؟ شلون صرت خالد؟

أجابه، بامتعاض:

- والله بخير، يلا خلينا نرجع عالبيت.

قالت أمه:

- لا، مو هلئ، بس يجي الدكتور ويشوف وضعك.

أما أبوه، فهزّ برأسه وراح يتفقد المكان بنظراته الفاحصة:

- أهلين أبو غالب، كيفو أبوك وجدك؟

أجاب:

- الحمد لله بخير، بيسلموا عليك عمي!

اقتربتْ منه أم خالد وهمست له:

- لقد جاء ليعتذر من الموضوع القديم!

فصاح بها:

- ما خلصنا من هالقصص؟ خلص، أنا قلتلك، البريء الله بينجيه، والله على الظالم!

فهم أبو غالب ما يدور بينهما، فقال:

- إي والله عمي، أنا إجيت لحتى شوف خالد، وصادف إني شفت أم خالد، والاستاذ الله يجزيه الخير، هو اللي كشفلي الحقيقة وخلاني شوفها، وأنا اعتذرت من أم خالد، وكمان رح اعتذر منك على كل شي صار، وأي شي أنا حاضر.

وحقك عندي، وإذا مو عندي، عند أبي وجدي!

بعنفوان محارب منتصر، التفت كمن لا يريد أن يأخذ غنيمته، وأجابه:

- مو مشكلة عمي... كل شي إلو حل. وأشكرك على صدقك!

خرج من الغرفة، وأغلق الباب خلفه..

في تلك اللحظة، جميع من في الغرفة، كان يسمع

صوت عرجته يختفي شيئًا فشيئًا، في ذلك الممر، ثم على الدرج، كلما ابتعد، كان يزداد إيقاعها الرتيب!

لم يغادرنا تمامًا،
بل استقر في وجداننا، كوصية غير معلنة!